التأثيرات الشرقية والنهضة الاقتصادية فى الغرب[1]

لروبرت لوبز[*]

(١)

إن التفوق الاقتصادى للغرب على الشرق لا يزيد عمره عن ألف سنة وهى فترة لا تكاد تبلغ سدس أوخمس التاريخ المدون للإنسانية ، أما تفوق أهل الشرق فانه على العكس يرجع إلى أربعة آلاف سنة قبل الميلاد إن لم يرجع إلى ما قبل ذلك .

وقد هدد انتعاش أوروبا الغربية الرومانية وقتاً ما هذا التفوق الشرقى ولكنه توطد مرة أخرى بعد الأزمة الكبرى التى حدثت فى القرن الثالث الميلادى(١)،

---

(١) الشرق والغرب من المصطلحات النسبية التى يمكن أن تطبق على أى اقليم ، ولكننا جرينا هنا على العرف الذى اتبعه معظم المؤرخين الأوروبيين والأمريكيين فهم يطلقون « الغرب » تقريباً على أوروبا غربى البحر الأدرياتى ونهر الألب و « الشرق » على القارة الآسيوية بأسرها والبلقان وكل البلاد التى تحتلها الأمم الناطقة بالضاد مهما قرب موقعها الجغرافى من الغرب ، وهذا معناه أن دراستنا هذه تتعلق أساساً بالعلاقات التى قامت فى حوض البحر المتوسط ، وان أسبانيا وصقلية لا تعدان من « البلاد الغربية » إلا بعد خروج العرب والروم منهما ، وقد تركنا جانباً وبعد تردد البلاد الصقلبية والبلقان والمجر التى حدثت عن طريقها مبادلات فى السلع والأفكار ، ولكن مثل هذه التيارات كانت تيارات منعزلة ثانوية ولم يبلغ تأثيرها فى نمو الغرب من العمق مابلغه تأثير تيار البحر المتوسط . وذكرها عرضاً أمر غير ذى بال ، وبحثها بتعمق يقطع الصلة والاستمرار فى الموضوع الرئيسى .

(*) هذه المقالة أوصى بها المرحوم الاستاذ رينيه جروسيه المشرف على المجلد الثالث من المجلة الدولية التى تصدرها اليونسكو باسم Cahiers d'Histoire Internationale ونشرت به المقالة (يناير ١٩٥٤) .

(١) لما كان القسم الأول ليس إلا مقدمة تلخص أحداث القرون الخمسة التى سبقت النهضة الاقتصادية فى الغرب فاننا نكتفى بذكر بعض المراجع الهامة . ويكاد كل ما ألف منذ خمسة وعشرين عاماً فى موضوع اقتصاديات هذه القرون الخمسة يدور حول نظرية بيرين ، وهى نظرية غير دقيقة ولكنها نظرية بارعة خصبة وقد ذكر أكثر من مائة مؤلف تتعلق بهذه النظرية مع التعليقات عليها فى التوجيه إلى المصادر فى مقالة آن ريزنج Anne Rising : مصير نظريات بيرين = The Fate of Henri Pirenne's Theses المنشورة فى مجلة Classica et Medievalia, XIII, 1952), 87-130 وسنقدم شرحاً جديداً عن الموضوع فى التقرير الذى نقوم باعداده بالاشتراك مع مسيو بونيتى ودوجر للمؤتمر الدولى العاشر للعلوم التاريخية (روما ١٩٥٥)

وكان النصف الشرقى من الامبراطورية الرومانية قبل خلع رومولوس ٤٧٦ قد تأثر إلى حد خطير بالاضطراب العام فى الامبراطورية ولكنه أثبت دون غيره أنه يستطيع استرداد قواه(١) إذ استمرت مدنه على عظمتها وريفه مأهولا، واستولى تجاره من الروم والسوريين واليهود على ما بقى من التجارة الكبرى فى البحر المتوسط ، واستمر استيلاؤهم عليها زمناً طويلا بعد الانهيار الاقتصادى فى العالم القديم . وفى القرن السادس فى عهد جستنيان كادت القسطنطينية أن تستعيد لفائدتها الأقاليم التى خرجت عن سلطان رومة، وفى بداية القرن السابع، فى عهد هرقل عبرت بضعة سفن من الأسكندرية أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق) بحثاً عن القصدير فى انجلتره(٢)، وفى الوقت ذاته وسعت الامبراطورية البيزنطية نطاق مصالحها فى آسيا وأفريقية حيث دفعها موقعها البعيد عن رومة، وبلغ تجارها ومرسلوها جزيرة سيلان أحيانا ، بل وبلغوا بلاد الحبشة على الرغم من جهود الفرس لسد الطريق أمامهم ، وجلب بعض الرهبان البوذيين دودة القز لجستنيان، وهى أول عون مباشر قدمته الصين لمد أوروبا بأدوات الصناعة(٣) وفيما بعد ، بين ٦٤٣ و ٧١٩ ، وصلت أربع بعثات دبلوماسية بيزنطية إلى العاصمة الصينية لعقد محالفة يمكن بها سحق العرب بين فكى الكماشة(٤) .

---

(١) براتيانو George I. Bratianu فى « توزيع الذهب والأسباب الاقتصادية لانقسام الامبراطورية الرومانية La distribution de l'or et les raisons économiques de la division de l'Empire Romain وقد أعاد نشره فى كتابه « دراسات بيزنطية فى التاريخ الاقتصادى والاجتماعى » ص ٥٩ وما بعدها Etudes byzantines d'histoire économique et sociale Paris, Geuthner, 1938)

(٢) لوبيز Robert S. Lopez ؛ (مشكلة العلاقات الانجليزية البيزنطية من القرن الثامن إلى القرن العاشر) فى مجلة Byzantion العدد ١٨ (١٩٤٦ — ١٩٤٧) ص ١٣٩ وما بعدها = Le problème des rélations anglo-byzantines du VIIIe au Xe siècle, Byzantion, XVIII 1946-1947) p. 139 sqq.

(٣) هنج : R. Hennig : (إدخال تربية دودة القز فى الامبراطورية البيزنطية) : فى الصحيفة Die Einführung der Seidenraupenzucht ins Byzantin Reich Byzantinische Zeitschrift, XXXIII 1933) p. 295 sqq. : البيزنطية

(٤) فتزجيرالد Charles P. Fitzgerald, China, فى « موجز تاريخ الصين الثقافى » a Short Cultural History 2nd ed. Lond., Cresset Press, 1948) ch. XV

وقد فشلت هذه البعوث ، وانطوت الامبراطورية البيزنطية على نفسها ، وهزم الصينيون بدورهم على يد العرب والترك عند شواطىء نهر تالاس وتخلوا عن أحلامهم فى سيادة آسيا الوسطى ، لكن العرب بعد أن سادوا امبراطورية تمتد فى خليج غسقونية (بسكاى) إلى دلتا السند ، واشتركوا فى الحركات التجارية التى امتدت إلى كورية وارخبيل الهند من ناحية وجنوب شرق افريقية وأوروبا البحر البلطى من ناحية أخرى — أمكنهم أن يقربوا بين الشرق والغرب إلى حد لم يكن معروفا حتى ذلك الحين ، وكان اليهود الراذانية (نسبة إلى نهر رودانس أى الرون) الذين ذكرهم أحد الجغرافيين العرب فى القرن التاسع أشد ضعفاً من العرب ، ولذلك كانوا أقل منهم إثارة للخوف ولم توضع العقبات فى سبيل تنقلهم فاستطاعوا أن يتنقلوا ذهابا وإياباً بين أسبانيا والصين سالكين طرقاً ثلاثة مختلفة هيأت لهم التوقف فى أهم أسواق أوروبا الجنوبية وأفريقية الشمالية وآسيا الوسطى والجنوبية(١) .

أما نصيب أوروبا الكاثوليكية فى التجارة الدولية فى العصر الوسيط الأول فانه كان دون شك متواضعاً للغاية ، إذ قل عدد سكانها ولم تكن طرق المواصلات فيه صالحة تماماً ، وضعف إنتاجها وكانت حضارتها ريفية فلم يهيىء لها ذلك كله سبيل المنافسة مع الدول الكبرى فى العالم البيزنطى أو الاسلامى والتى أحاطت بها وجاورتها على طول حدودها ؛ ولكن ذلك ليس معناه أن وجود مثل هذه التيارات الواسعة على أبوابها لم يكن دون تأثير ، فالحضارة الأوروبية ما كان لها أن تسلك إزاء الحضارات الشرقية إلا مسلك المستعمرة بالنسبة للبلاد الأم المستعمرة ، وإذا كانت الجماهير لم تستهلك إلا ما كانت تنتجه فى أرضها فان الصفوة من أهل السياسة والدين والعلم التى كانت مزودة بوسائل الشراء ومعرضة للتأثيرات الخارجية كانت تشترى منتجات الترف للمساكن والكنائس وللطعام والملبس ، وكانت تدفع أثمانها حسب رغبتها ذهباً أوفضة أومواد أولية كالخشب

---

(١) رابينوفتس = Lewis Rabinowicz فى (تجار اليهود المغامرون) = Jewish Merchant Adventurers (London, Goldston, 1948) وهذا الكتاب هام وذكرت به المراجع ولكنه مفرط فى حماسته .

والحديد والفراء أوسلعة أخرى بطل تعودنا على حسبانها فى عداد السلع ألا وهى الرقيق، ولم تبخل أية حضارة رفيعة بتقديرها لبعض التحف الفنية أوالأدوات النافعة التى تنتجها شعوب أقل منها تطوراً ، فلم تخل السيوف الفرنسية أوالصقلبية من تأثير فى رجال السيف بدمشق وطليطلة ، ولما كانت الاحصاءات منعدمة فاننا نعجز عن معرفة ميزان المدفوعات بين أوروبا الكاثوليكية والعالم الاسلامى والبيزنطى وهل كان إيجابياً أو سلبياً ، ثم أنه يجب أن نعمل حسابا لانتقال رؤوس الأموال الذى أدت إليه الحروب والجزيات ، وكل فرض فى هذا الشأن يتساوى مع غيره ، ولكن ليس هناك سبب يدعو إلى أن نفترض مقدما أن البلاد المستعمرة التى تصدر المواد الأولية وتستورد المنتجات المصنوعة لا تنجح فى موازنة ميزانيتها . ومهما يكن الأمرفان العلاقات مع الشرق جعلت من الجو الراكد بأوروبا جواً غنياً وأصبحت المحرك الاقتصادى الوحيد الذى يستطيع أن يهز الغرب ويقلبه رأساً على عقب(١) .

وفضلا عن ذلك فان الشرق لم يقنع بأن يحرك من الخارج الأجهزة المحركة فى أوروبا ولكنه افتأت عليها كثيراً ، فعسكر فى صميم الغرب فى شبه الجزيرة الأيبيرية التى احتفظ فيها البيزنطيون بممتلكات من ٥٤٤ إلى ٦٢٤ تقريباً، والتى ساد فيها المسلمون قرونا عدة ولم يسلموا آخرقلاعهم إلا فى نهاية العصر الوسيط ، وفى الوسط أشرف الشرق على صقلية التى خلف فيها أمراء المسلمين بطارقة البيزنطيين ، وقد ترك أولئك أى الأمراء المسلمون بصقلية حتى بعد طردهم منها فى القرن الحادى عشر طائفة اسلامية ظلت تعيش فى صقلية حتى ١٢٢٢ وحتى ١٣٠٠ بعد انتقالها إلى أبوليا . وتمسك الشرق طويلا بأقاليم إيطالية أخرى بل إنه لم يتخل عنها فى شكل ما ، فلا تزال اللغة اليونانية لغة الكلام حتى الآن فى كثير من قرية قلورية (كالابريا) وقد تتفوق البندقية على المدن الايطالية فى يطاليتها لأنها لم تخضع لسيادة أجنبية قبل بونابرت ، ولكنها من الناحية الفنية والسياسية والاقتصادية ترتبط بالعالم الشرق ارتباطها بالغرب الأوروبى .

---

(١) يمكن الرجوع للتوجيه الأول إلى تاريخ كمبردج الاقتصادى ج ٢ ف ٥ ص ٢٥٧ وما بعدها (المراجع ص ٥٤٠ — ٥٤٣)

وليس من قبيل المصادفة أن تكون المدن نصف الشرقية التى لم تهجع قط كالبندقية وامالفى وسالرنو وبارى فى مقدمة العوامل التى أدت إلى النهضة الاقتصادية فى الغرب منذ القرن العاشر ، وثمة شعب آخر وجد قبل هذه المدن واشترك معها غالباً وساد تجارة أوروبا فى بدء الثورة التجارية ، وهو أمة شرقية لا جذور أو وطن لها ونقصد به اليهود .

وإذا أضفنا إلى ذلك أن البرابرة غزاة أوربا جاء معظمهم بدورهم من سهوب الشرق الكبرى ، وأنهم جلبوا معهم بعض الأفكار الفنية والصناعية والأدوات الشرقية الأصل ، فان وجود الشرق وجوداً شاملا فى الحياة الغربية يزداد وضوحاً(١) ومن ناحية أخرى استعارت رومة ذاتها الشىء الكثير من العالم الهلينستى ، والدين الذى أورثته لأوروبا المسيحية فى العصر الوسيط أليس دينا نشأ فى فلسطين ؟ وإذن ففى بحثنا هذا موضوعان متلازمان : أولهما النهضة الاقتصادية فى الغرب وهو يمثل عاملا جديداً ظهر فى القرن العاشر واستمر فى القرنين أو القرون الثلاثة بعده ، وثانيهما موضوع التأثيرات الشرقية التى ظلت قائمة دائماً ولم تكف عن العمل منذ بداية التاريخ ولم ينته مجال البحث فيها حتى الآن .

(٢)

فى التاريخ الذى جرى أسلافنا على كتابته ولا يزال يتعثر حتى الآن فى بعض الكتب المدرسية نجد أن القرن العاشر يمثل قرار الهوة التى تردت فيها أوروبا

---

(١) أدوارسالان Ed. Salan فى مؤلفه (الحضارة الميروفنجية تبعاً للمدافن والنصوص والتحاليل) = La civilisation mérovingienne d'après les sépultures, les textes et le laboratoire (2 vols, Paris, A. et J. Picard 1950-52).

وقد جدد تاريخ هذه العلاقات فيما يتعلق بالفرنجة ؛ وعن الشعوب الجرمانية الأخرى أنظر التقرير الجامع لبونتى Gian Piero Bognetti فى مجلة Archivio Storico Lombardo, sér. 8 vol. II (1950) ص ٣٣٥ — ٣٤٦ ، ولكن يجب كذلك الرجوع إلى التحفظات التى أبداها فوسيون H. Focillon فى كتابه (عام ألف) = L'An Mil (Paris, A. Colin, 1952) ch. I. على مدى التأثيرات التى نقلها البرابرة .

بعد انتصار البرابرة ، وأن الحروب الصليبية تمثل نقطة التحول فى العصر الوسيط والقوة الجليلة المباغتة التى سببت الازدهار الاقتصادى والسياسى والعقلى فى الغرب ؛ وقد غيرنا هذا الرأى على نحو مافعل سجاناريل(*) ، فأصبحنا الآن نبرز أهمية القوة المجهولة المسوية التدريجية لزيادة عدد السكان زيادة كبيرة بدأت قبل عام ألف وبلغت ذروتها فى نحو نهاية القرن الثالث عشر ثم ضعفت وتلاشت تماماً فى خلال القرن الرابع عشر .

صحيح أن عدد السكان لم يزد فى أوروبا وحدها ، ولكنه زاد فيما نعلم فى العالم كله ، إلا أن أوروبا قد زادت مكاسبها لأنها بدأت من مستوى شديد الانخفاض ، وكانت حاجتها للسكان أشد حتى يمكنها النهوض فى كبوتها(١) .

فهل يعترض أحفادنا على هذا الأسلوب الذى ملنا إليه فى كتابة التاريخ بدون أبطال ؟ لا يحتمل أن يعود الناس إلى نسيان الدور بالغ الأهمية الذى قام به المغمورون كما نسوا ذلك فيما مضى ، ولكننا يجب أن نبتعد من الآن عن أى تصور إحصائى ضيق للتاريخ ، فالأرقام ليست شيئاً إذا انعدم تميزها ، وإذا استحال فى الغالب أن ننتزع من المصادر النادرة أية معلومات عن الأفراد الذين مهدوا الطريق وسهلوا حدوث الثورة التجارية الكبرى فى العصر الوسيط فأننا نقول على الرغم من ذلك أن أوروبا لم تكن تستطيع النهوض إلا معتمدة

(*) من شخصيات مسرحيات موليير لعب دوراً هاماً فى المسرحية المعروفة باسمه وفى غيرها وكان يمثل التفكير العام السليم غالبا والخبث أحيانا (المعرب)

(١) أنظر المراجع العامة فى مقالتى الأخيرة (نهضة أخرى أيضاً) ؟ : Still Another Renaissance? المنشورة فى المجلة التاريخية الأمريكية : American Historical Review, LVII (1951-52). 1-21.

ويضاف إليها مؤلفات أخرى هامة ظهرت بعدها مثل مؤلف جانسهوف : François L. Ganshof عن العصر الوسيط . وهو أول أجزاء تاريخ العلاقات الدولية ، باشراف رينوفان P. Renouvin ؛ Histoire des relations internationales Paris, Hachette, 1953) و (مجتمع ميلانو فى العصر السابق للكومون) لمؤلفه فيولانتى : Cinzio Violante, La società milanese nell'età precomunale (Bari, Laterza, 1953)

ومدن فلاندر وإيطاليا فى عهد حكومة الاشراف لمؤلفه لستوكوا : Jules Lestocquoy, Les Villes de Flandre et d'Italie sous le gouvernement des patriciens (Paris. Presses Universitaires de France, 1952).

على الذكاء والمبادءة والشجاعة ، وهى كلها أدوات غير منظورة ولابد منها فى كل عمل ناجح . ومن ناحية أخرى فان النتيجة النهائية للثورة التجارية كانت قلباً للعلاقات بين الغرب والشرق ، فأصبح الشرق مديناً للبلاد التى ظلت أقل منه مكانة زمناً طويلا ، ولم يستطع الغرب أن يحرر نفسه إلا بعد بذل الثمن من تعلم ومران وجهد طويل فى الشرق .

والزيادة فى عدد السكان أمر لا يهمنا فى هذا المقام ، وقد تلتها ظاهرة أخرى هامة عاونت أكثر من غيرها على النهضة الاقتصادية للشعب وهى تقدم الأساليب أو الوسائل والطرق الفنية والصناعية(١) ، وفى هذا الميدان كما هو الحال فى غيره من الميادين كانت القروض كثيرة ولها دلالتها ، ونحن لا نحاول أن نعرض لها جميعاً فذلك قد يملأ مجلداً كبيراً ولنجتزىء بقطاع هام وهو طرق المواصلات ؛ فكما أن الثورة الصناعية فى العصر الحديث صحبتها ثورة فى وسائل النقل شملت الطرق والترع والسكك الحديدية والسفن والسيارات والطائرات — كذلك الثورة التجارية فى العصر الوسيط صحبها تقدم فى وسائل المواصلات ، فماذا كان نصيب الشرق فيه ؟

---

(١) أنظر المراجع العامة فى مقالتين للين هوايت : Lynn White وهما (الصناعة والاختراع فى العصور الوسطى) Technology and Invention in the Middle Ages المنشورة فى مجلة Speculum, XV, 1940, 141-59 والعلم الطبيعى والفن الطبيعى فى العصور الوسطى : Natural Science and Naturalistic Art in the Middle Ages المنشورة فى المجلة التاريخية الأمريكية عدد ٥٢ (١٩٤٦ — ١٩٤٧) ص ٤٢١ — ٤٣٥ وهما بحثان جيدان فى حد ذاتها وليس معنى ذلك أنى أشاطر المؤلف دائماً وجهات نظره . وثمة معلومات أخرى عن المراجع فى المؤلف الكبير الذى يجرى نشره لجورج سارتون George Sarton وهو مقدمة تاريخ العلوم : Introduction to the History of Sciences Baltimore, Carnegie Institution, (1927...) ؛

ويجدر أيضاً ذكر المؤلفات الحديثة لاوتشللى Arturo Uccelli (تاريخ الصناعة من العصر الوسيط حتى وقتنا) : Storia della tecnica dal medio evo ai nostri gironi (Milan, Hoepli, 1945) والناس والآلات والتاريخ لمؤلفه ليل : Samuel Lilley, Men, Machines and History (London, Cobbett, 1948) وفوربز Robert J. Forbes : الانسان الصانع Man the Maker (New York, H. Schuman, 1950) ويعد الآن مؤلف جديد فى تاريخ طرق الصناعات : History of Technology باشراف سنجر : Charles Singer ،وهوليارد : E. J. Holmyard وهذا المؤلف ينتظر أن يشمل خمسة مجلدات .

من المحتمل كثيراً أن أوروبا تلقت من الشرق الاختراعات الثلاثة التى أكسبت وسائل النقل البرية قوة جديدة فى بداية الثورة التجارية، وهى تعليق الدواب واحدة وراء الأخرى، والطوق الجامد حول الكتف لتسريج الحصان، ووضع الحدوة للخيول والبغال والثيران. ولاشك أن تاريخ انتقال هذه المخترعات ومراحلها المتعاقبة أمر يستحيل معرفته بدقة، فهو يتعلق بتغيير تدريجى فى التقاليد الجماعية أكثر مما هو متعلق بمخترعات أصيلة مرتبطة بشخص أو بجماعة من الرواد. أضف إلى ذلك أن الشرق نفسه لم يتبع نظاماً واحداً فى هذه الأمور الثلاثة فتعليق الدواب والطوق على ماتقول به الشواهد اللغوية، كانت أولا تطبيقاً صقلبياً لأجهزة تركية وأدوات مغولية لم تتخذها بيزنطة قط، أما وضع الحدوة فأننا نلحظه على العكس أول مرة على أبواب الغرب فى كتاب الصناعات Tactique للامبراطور البيزنطى ليون السادس الذى جمع فى نهاية القرن التاسع تقريباً (١) ومهما يكن الأمر فان شد الحيوانات أحدها وراء الآخر، وطوق الكتف زادت فى قدرة الحيوانات على الجر، وأدت خدمات ثمينة لا فى التجارة وحدها ولكن فى الزراعة أيضاً حيثما أمكن الاستفادة من استبدال الحصان بالثور فى المحراث. أما حدوة الحصان التى كانت توضع لحيوانات الحمل ولحيوانات الجر أيضاً فانها سهلت السير فى الممرات الشاقة وزادت فى طول بقاء حوافر الحيوانات على الطرق السهلة، ومما هو جدير بالذكر أن البغال المحملة أقدر على السير مسافات أطول من الخيل، وأنه لم يصبح فى الإمكان استخدام البغال على نطاق واسع إلا بعد القرن العاشر أى بعد أن تقدمت تربيتها فى البلاد الاسلامية وانتقلت من افريقية إلى أسبانيا فانخفضت أسعارها (٢).

---

(١) إن أحدث الأبحاث فيما أعلم، فى هذه المشاكل التى كثر فيها الجدل هى المذكرتان الوجيزتان لفيفر واودريكور : Lucien Fèvre & André-G. Handricourt تعليق الدواب دائما : Toujours l'attelage المنشورة فى Annales d'Histoire Sociale, II (1940), 33, 34 والمجلد الأول من تاريخ كمبردج الاقتصادى : Cambridge Economic History, I, ch. III. (بقلم Charles Parrain ، وبه المراجع).

(٢) لا يوجد لسوء الحظ أية دراسة جامعة عن استخدام الحيوانات المختلفة فى شئون النقل ولا نجد إلا ملاحظات عابرة فى تواريخ الزراعة مثل مؤلف جران ودلاتوش : Roger Grand & Raymond Delatouche الزراعة فى العصر الوسيط منذ نهاية الأمبراطورية =

وإذا اتجهنا إلى النقل البحرى فأننا نجد أن دور الشرق معلماً لأوروبا الكاثوليكية هو دور هام أيضاً والتأكد منه أشد . صحيح أن المخترعات الكبيرة لم تكن فيما يحتمل منحة من الشرق ، فمعظم العلماء الآن يعتقدون أن البوصلة نشأت فى الصين ، والدفة المركزية (التى يشك كثيراً فى تفوقها على الدفات الجانبية) يبدو أنها جربت أولا فى مياه المحيط الأطلسى ، والشراع اللاتينى وحده هو الذى لا يشك فى أنه مأخوذ عن الشرق بالرغم من الاسم الذى أطلق عليه ، لأن أول صورة يمكن أن تمثل هذا الشراع وجدت فى كنيسة بفلسطين ترجع إلى العصر السابق على الاسلام ، وان أول صور له يمكن التعرف عليها بوضوح وردت فى مخطوطين يونانيين من القرن التاسع(١) ولكن ما يهمنا أكثر من غيره هو الأصل البيزنطى أو الاسلامى لكافة أنواع السفن تقريباً التى سادت البحار منذ القرن العاشر حتى القرون الأولى من العصر الحديث ، ولسنا فى حاجة حتى نقتنع بذلك إلى أن تتكبد مشقة وصف التجارب والمراحل التى مر بها انتقالها هذا فى الآثار القليلة والوثائق الباقية ، وإنما يكفى أن نتصفح قاموساً للاشتقاقات . فالمصطلحات البحرية المستخدمة بعد القرن العاشر يرجع

= الرومانية حتى القرن السادس عشر L'agriculture au moyen-âge à la fin de l'empire romain au XVIe siècle (Paris, E. De Boccard, 1950). أو مؤلفات عامة عن المواصلات البرية مثل مؤلف شيفل : Paul H. Scheffel تاريخ طرق جبال الألب : Verkehrsgeschichte der Alpen (Berlin, Reimer, 1908-1914) 2 vol أو تاريخ حضارات برمتها مثل متس : Adam Mez فى كتابه نهضة الاسلام : Die Renaissance Islams (Heidelberg, Carl Winters, 1922) ؛ وكوكوليس : Ph. Koukoules فى كتابه الحياة والسياسة فى بيزنطة : Bzantinôn, Bios kai Politismos, V (Athènes, Institut Français, 1952).

(١) أنظر عن البوصلة فضلا عن المؤلفات التى ذكرها هوايت ص ١٤٦ هامش ٣ مقالة هاشيموتو M. Hashimoto نشأة البوصلة : Origin of the Compass المنشورة فى Memoirs of the Research Department of the Toyo Bunko, I (1926), 69-92 وفيما يتعلق بالدفة فانى متفق مع لارويرى : Guilleux La Roèrie فى مقالته تطور الدفة : Les transformation du gouvernail المنشورة فى Annales d'Histoire Economique et Sociale, VII (1955) p. 564

وقد ذكر هوايت مؤلفات أخرى ص ١٤٢ هامش ٢

وذكر أيضاً فى ص ١٤٥ هامش ٤ — ٦ مراجع عن الشراع اللاتينى .

نصفها على الأقل إلى أصل بيزنطى أو عربى ، ولا ينطبق هذا على السفن فقط وإنما يشمل كذلك ألقاب الضباط وأسماء المصانع البحرية ومفردات الملاحة ، فالأسطول فى العصر الوسيط عرف باسم stolium (من اللفظة الإغريقية stolos).

ويقود أميرال (من اللفظة العربية أمير) وهو يرسو scarium أو escales (من اليونانية scarion) فى الترسانة arsenal أو darse (من العربية دار الصناعة) . أما عن الأسماء التى تطلق على السفن فانه يكفى أن نذكر أشهرها : جالير من اليونانية galaia ومعناها سمكة الرمح وقد ذكرت الجالير لأول مرة بهذا الاسم كما ذكر الحدو فى كتاب الصناعات لليون السادس(١) .

وقد يعترض على ذلك بأن الجالير البيزنطية ليست فى النهاية إلا تعديلا للنماذج اليونانية والرومانية وانها قد عدلها بدورها البحارون فى غرب البحر المتوسط ، كذلك جاء ذكر تعليق أو شد الحيوانات صفاً واحداً فى مؤلفات بلينوس ، وليس لذلك أهمية فالتاريخ العقلى يخصص صفحة لأغريق الاسكندرية الذين

---

(١) أنظر عن الغرب مؤلف لارونسيير : Charles de la Roncière تاريخ البحرية الفرنسية : Histoire de la Marine Française, I (3e éd., Paris, Plon-Nourrit, 1909) ومؤلف ما نفرونى : Camillo Manfroni تاريخ البحرية الايطالية منذ الغزوات البربرية إلى معاهدة نينفيو : Storia della marina Italiana dalle invasione barbariche al trattato di Ninfeo (Livorno, Academia Navale, 1899). وهما على قدمهماوخاصة فى بعض التفصيلات لايزالان من المراجع الهامة ، وتراجع الاشتقاقات بالرجوع إلى قاموس البحرية فى العصر الوسيط والحديث : Dizionario di marina medievale e moderno باشراف برتونى : Giulio Bertoni (Rome, R. Academia d'Italia, 1937) وليس لدينا عن البحرية البيزنطية إلا مؤلف بريبيه : Louis Bréhier نظم الامبراطورية البيزنطية Les Institution de l'empire byzantin (Paris, Albin Michel, 1949) ص ٤٠٤ — ٤٢٩ ، وأنظر عنه انتقادات R. H. Dolley المنشورة فى مجلة Byzantion العدد ٢٠ (١٩٥٠) ص ٣٧٥ — ٣٧٧ . وعن البحرية الاسلامية حورانى : George F. Hourani الملاحة العربية فى المحيط الهندى فى العصر القديم وأوائل الوسيط Arab Seafaring in the Indian Ocean in Ancient and Early Medieval Times (Princeton, N. J., Princeton University Press, 1951) وهادى حسن A History of Persian Navigation : تاريخ الملاحة الفارسية . Hadi Hasan (London, Methuen, 1928) وهذه المؤلفات عن البحرية الاسلامية وأن تكن على هامش بحثنا إلا أنها تحوى معلومات مفيدة .

كشفوا عن القوة المحركة للبخار واستخدموها فى صنع بعض اللعب، أو لروجر باكون الذى صنع لنفسه منظاراً مقرباً (تلسكوب) وصوبه على حقل قمح يبعد عنه ببضعة أميال ؛ أما التاريخ الاقتصادى فانه لا يعنى بالمخترعات إلا بعد أن تؤثر تأثيراً عميقاً فى الإنتاج وتوزيع الأموال . ومنذ القرن العاشر كانت أوروبا قد سرى فيها النشاط ، وكانت فى حاجة إلى بعض الفنون والصناعات التى لم تكن لتفيد منها فى العصر الوسيط الأول أو حتى فى العصر القديم ، وكان الشرق متأهباً لمدها بها ومنها الجديد كل الجدة ومنها القديم الذى أهمله الغرب أو نسيه منذ زمن طويل(١) ولم تثمر هذه الصناعات إلا لأنها لقيت تربة صالحة ولأن الغرب استولى عليها وعدلها لاستعماله وحولها بما يتفق وحاجته ، وليس هذا فى نهاية الأمر بأقل صور الابتكار شأناً .

ويبدو أن الغرب قد أنشأ بنفسه مما لديه صناعته وفنه الخاص بتعبيد الطرق

---

(١) مثل آخر عن طريقتين صناعتين متشابهتين لا تتصلان بطرق المواصلات ولكن كان لهما أعمق الأثر فى الازدهار الاقتصادى بأوروبا وهما الطاحونة المائية والطاحونة الهوائية . ولا شك أن الأولى ترجع إلى أصل شرقى إذ ذكرت أولا فى عام ١٨ ق . م تقريبا بين ملحقات قصر ميثريداتس ، وبعد ذلك بقليل خصها أحد شعراء اليونان بقصيدة قصيرة ساخرة قد تكون أقدم ما ألف الشعراء فى التقدم الصناعى ، ولم تلبث أن ظهرت فى الوقت ذاته تقريباً فى إيطاليا والاقاليم الغربية ، ولكن لم تنتشر سريعاً إلا فى أثناء العصر الوسيط ولم تتغلب تماما قبل نهاية القرن الثامن عشر فهى إذن إختراع شرقى من العصر القديم أعطى أهم ثماره فى أوروبا بعد (النهضة الاقتصادية فى الغرب) وكان مارك بلوك فى مقالته ظهور الطاحونة المائية وانتشارها Avènement et conquêtes du moulin à eau المنشورة فى مجلة Annales d'Histoire Economique et Sociale, VII (1935), 335 على حق فى ربطه إنتشارها بانحطاط نظام الرق ونهضة المدن التى حدثت منذ القرن العاشر . وليس هناك لسوء الحظ مؤرخ له مقدرة مارك بلوك ليصف لنا تطور طاحونة الهواء — وأنظر مع ذلك هورفتز H. T. Horwitz فى مقالته ظهور وأول تطور وإنتشار الطواحين الهوائية : Ueber das Aufkommen, die erste Entwicklung und die Verbreitung von Windraden المنشورة بمجلة التاريخ الصناعى : Technik Geschichte, XXII (1933) ص ٩٣ وما بعدها . ولكننا نعلم أن الطواحين الهوائية المزودة بمحور أفقى كانت موجودة فى العالم الاسلامى فى القرن العاشر . ومنذ القرن الثانى عشر وجدت الطواحين الهوائية فى أقاليم كثيرة فى أوروبا ولا سيما فى الشمال الغربى ولكنها كانت مزودة بمحور رأسى. فهل كان ذلك مجرد إنتقال أو إختراعا مستقلا ؟ ولم نصل إلى حل لهذا الموضوع ولكن أظن من جهتى أنها من أصل شرقى مع تعديل غربى لها .

فلم يكن لدى العرب شيء فى هذا الميدان ليعلموه له ، ولم يبتعد البيزنطيون فيما يبدو عن التقاليد الرومانية التى شابهت بدورها تقاليد فارس الساسانية والصين . وقد خلفت رومة شبكة ضخمة من الطرق التى يكاد لا يتطرق إليها التلف ، ولكنها كانت طرقاً ضيقة غاية الضيق وصلبة غاية الصلابة بالنسبة للنقل الكبير ، وكانت بصفة خاصة غير مرنة فلا تظل فى حال حسنة دون إصلاحات متكررة كثيرة النفقات : وهى كانت تصنع من طبقة من الخراسانة تكسوها رقع البلاط الملصق بعضها ببعض ، وعلى الرغم من أن أوروبا فى العصر الوسيط المتأخر قد زاد عدد السكان فيها فانه لم يكن لديها تلك الأعداد الضخمة من العبيد والرقيق التى كانت تخضع للامبراطوريات الكبرى ، فقنعت بطرق لا أساس لها وضعت فيها الحجارة متفرقة على الأرض مباشرة فكانت الطرق الأوروبية أشد فقراً وتواضعاً ولكنها كانت مرنة جداً لا تكلف كثيراً حتى للمسافات الطويلة وموجز القول أنها كانت كافية للنقل فى ذلك العصر(١) .

(٣)

لا يجب أن نبالغ فى أهمية وسائل الصناعة المادية ، فالأدوات لا قيمة لها إلا بالأيدى التى تستخدمها والعقول التى توجهها ، والأذكياء المجدون إذا كانت أدواتهم قديمة فانهم يستطيعون مع ذلك أن يبلغوا بها أهدافاً لا يبلغها غيرهم ممن انحطت بهم صفاتهم عن الارتفاع إلى مستوى الأدوات التى فى متناولهم . وقد

---

(١) أما أن الطرق فى العصر الوسيط كانت تختلف جد الاختلاف عن الطرق الرومانية فهذا أمر لا شك فيه ، أما إنها كانت أحسن منها كما يؤكد الكوماندان Lefebvre des Noëttes الذى يدافع ببراعة عن الروح الصناعية للعصر الوسيط فهذا أمر لست مقتنعا به . ولكن الطرق فى العصر الوسيط كانت أكثر صلاحية وتوافقا مع البناء السياسى والاجتماعى للمنظمات العامة التى أشرفت على تعهدها . أنظر للتوجيه الأول عن موضوع الطرق فى الغرب : تاريخ كمبردج الاقتصادى ج ٢ ص ١٤٣ وما بعدها ، وص ٣٣٣ ؛ وأنظر عن الطرق فى البلاد الاسلامية مؤلف Mez ف ٢٨ ؛ وعن المعلومات الخاصة بالمراجع R. S. Lopez فى مقالة (تطور النقل البرى فى العصر الوسيط) : L'evoluzione dei transporti terrestre nel medio evo, المنشور فى مجلة معهد كولمبوس : Bolletino Civico Instituto Colombiano, I (1953)

حان الوقت لأن نتجه إلى ناحية أخرى من نواحى الاستيراد من الشرق وهى ناحية الأفكار(١) .

---

(١) لا يزال هذا الميدان بكرا تقريبا حتى فى مراجعه ومصادره الأساسية ننتقل فيه من المشاهد الكبرى الغامضة التى تنقصها الدقة إلى الدراسات الصغيرة للتفصيلات ، ولدينا فيما يتعلق بالبلاد الاسلامية على الأقل أداة البحث الجيدة الخاصة بالمصادر فى مجموعها والتى وضعها سوفاجيه : J. Sauvaget (مقدمة لتاريخ الشرق الاسلامى : Introduction à l'histoire de l'Orient Musulman (Paris, Adrien Maisonneuve, 1943). وليس لدينا عن الحضارة البيزنطية ، إذا تركنا جانبا قائمة المراجع المكتظة التى وضعها Bréhier إلا نشرات إنتقادية فى مجلة Byzantion ومجلة Byzantinische Zeitschrift وعن الأبحاث التى ظهرت بين سنتى ١٩٣٨ ، ١٩٥٠ يمكن الرجوع إلى القائمة التى وضعها Franz Dölger و A. M. Schneider, بعنوان Byzanz (Berne, A. Francke, 1952) ؛ وفى مؤلف ابرسولت Jean Ebersolt الشرق والغرب : Orient et Occident, Van Oest, 1928-1929) 2vols. ملاحظات تدعو للتفكير ، ولكنه بعيد عن توفية الموضوع كما يفهم من عنوان الكتاب . ولما كان مؤلف لندساى : Jack Lindsay بيزنطة فى داخل أوروبا : Byzantium into Europe لا يوثق به كثيرا فانه يجب جمع ما تناثر فى المؤلف المشترك بيزنطة : Byzantium باشراف بينس وموس : Norman H. Baynes & Henry St. L. B. Moss (Oxford Clarendon Press, 1948) إلا أن معظم ما جاء به هو نواحى التأثير البيزنطى فى شرق أوروبا خاصة ؛ كما يجب أيضا الافادة من اللمحات الموجزة الموضحة لديل : Charles Diehl فى مؤلفه بيزنطة عظمتها وتدهورها : Byzance, grandeur et décadence (Paris, Flammarion, 1924) ؛ ونذكر أيضا كتابا مدرسيا طيبا باللغة اليونانية الحديثة لزاكيثينوس Dionysios A. Zakythinos بيزنطة : (Byzantion, Athènes, Ikaros, 1951) ؛ وعن العالم الاسلامى المؤلف المشترك تراث الاسلام : The Legacy of Islam, باشراف أرنولد وجيوم : Thomas Arnold & Alfred Guillaume Oxford, Clarendon Press, 1931 (وهو معرب) وهو غير متوازن وتنعدم فيه المراجع غالبا ؛ ومؤلف جرينباوم : Gustave von Grunebaum الاسلام فى العصر الوسيط : Medieval Islam (2nd ed. Chicago, Chicago University Press, 1933) بحث يدعو للتفكير ويعين كثيراً وأن يكن لا يهتم كثيراً بالمشاكل الاقتصادية . ونذكر أيضا مؤلف جودفروا ديمومبين : Gaudefroy Demombynes النظم الاسلامية : Muslim Institutions (وهذه الترجمة الانجليزية نقحها المؤلف : . (London, Allen & Unwin, 1950

ودراسات عديدة عن مسائل تفصيلية متعلقة بالمسلمين مثل دراسات ليفى بروفنسال : Evariste Lévi Provençal (المدن والنظم المدينية فى الغرب الاسلامى فى العصر الوسيط : Las Ciudadas y las instituciones urbanas del occidente musulman en la edad media (Tetuan, 1905) ؛ والبورنوث : Claudio Sanchez Albornoz =

وهذا الموضوع لسوء الحظ من الموضوعات التى لا يسهل الإلمام بأطرافها ويقل البحث فيها ويصعب تحديدها ، فما هى الأفكار الشرقيـة التى عاونت على النهضة الاقتصادية فى الغرب ؟ هناك عناصر شتى متباينة يمكن أن يكون لها فى هذه النهضة دور ما مهما كان مدى تأثيرها فى أوروبا المسيحية ، ومن هذه العناصر : سيطرة الدولة فى بيزنطة على الشئون الاقتصادية ، وعطف المسلمين على التجار والمدن ، أو تقدم الطب عند اليهود ، وأننا نكتفى مرة أخرى ببضعة أمثلة لها دلالتها اخترناها من قطاع رئيسى وهو إدارة الأعمال (١) .

= أسبانيا الاسلامية : La España Musulmana (مجلدان يشملان المصادر مع التعليق عليها ومقدمة ومراجع — (Buenos Aires, El Atene, 1946) وجابرييلى : Francesco Gabrieli التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية : Storia e civiltâ Musulmana (Napoli, Ricciardi, 1947)

(١) وهذا الموضوع لم يبحث فى مجموعه ، ولسنا نريد أن نقلل من أهمية الجهود التى تبذلها للتقريب بين المختصين الدوريات العلمية الخاصة بتاريخ القانون مثل (المجلة التاريخية للقانون ومجلة الفرنسى والأجنبى) : Révue Historique de Droit Français et Etranger ؛ مؤسسة سافينى لتاريخ القانون : Zeitschrift der Savigny–Stiftung für Rechtsgeschichte وجمعية جان بودان ، Rivista del Diritto Commerciale : وجلة القانون التجارى Jean Bodin وغيرها من المنظمات إلا أن العقلية التحليلية الحريصة التى إمتاز بها مؤرخو القانون غالباً ما قصرتهم على دراسة الاشكال القانونية المحدودة والبحث فى ميدان ضيق ، ومن السهل الكشف عن الأخطاء التى وقع فيها بعض العلماء الذين قاوموا هذه النزعة المحلية مثل جولد شميت Levin Goldschmdt وكوهلر Joseph Kohler وسايو André E. Sayous (وقد انتقد هذا الأخير زميليه السابقين نقداً عنيفاً (ولكن قد يكون من الأجدى المغامرة بالاستمرار فى هذا الطريق نفسه . ومؤلف جولد شميت القديم التاريخ العالمى للقانون التجارى : Universalgeschichte des Handelsrechts (Stuttgart, Enke, 1891) لا يزال أحسن مؤلف جامع عن القانون التجارى فى الغرب وعلاقته بالقوانين الشرقية . وقد يكون المؤلف المدرسى الذى وضعه بستا Enrico Besta الالتزامات فى تاريخ القانون الايطالى : Le obligazione nella storia del diritto italiano (Padova, Cedam, 1937) متفوقاً عليه فى كثرة البحث والأفكار ، ولكنه وضع لحاجة التعليم فلم يتناول كافة الموضوعات بالشرح المفصل ، وليس به إلا قائمة موجزة للمراجع فى بداية الفصول . ولمعرفة المراجع يمكن الافادة من مؤلف لوبز وريموند : R. S. Lopez & Irving W. Raymond التجارة الوسيطة فى عالم البحر المتوسط : Medieval Trade in the Mediterranean World, (Columbia University Press, 1954). ؛ أما عن القانون البيزنطى فان محاضرات زيبوس Panagiôtês Zepos فى القانون اليونانى : Greek Law (Athènes, 1948) =

كان التأثير العربى فى هذا المجال أوضح من التأثير البيزنطى وهو يبرز أمام بصرنا إذا ماتصفحنا قاموساً للاشتقاقات ، وحتى فى وقتنا هذا نجد ألفاظاً مثل bazar، tarif، douane، fardeau، tare، avarie، risque، trafic، magasin، cheque، aval مأخوذة عن العربية أو الفارسية ، وفى اللغتين الإنجليزية والألمانية نجد أن قائمة الألفاظ المأخوذة عن العربية قد تقرب فى طولها من قائمة الألفاظ الفرنسية المأخوذة عنها ، وهى فى اللغة الإيطالية أطول كثيراً ، أما فى للغتين الأسبانية والبرتغالية فهى قائمة ضخمة فعلا ، وتزداد هذه القائمة كثيراً إذا أضفنا إليها الألفاظ التى ترجع إلى أصل يونانى وزال تداولها فى أيامنا ولكنها كانت شائعة الاستعمال فى العصر الوسيط ، وإن ما نسميه الآن convoi أى مجموعة السفن التجارية التى تحرسها سفن حربية كان يطلق عليه catabolus (من اليونانية katabolos) وذلك حتى القرن العاشر ثم أطلق عليه caravana (من اللفظة

= غنية فى متنها ومراجعها ، وهى على فائدتها لا يمكن أن تحل محل المؤلف الشامل الذى يمكن أن يخلف تماما المؤلفات القيمة القديمة للنجنتال : Karl E. Zachariae von Lingenthal تاريخ القانون اليونانى الرومانى : Geschichte des griechisch–romischen Rechts (3ed. Berlin, 1892) وفيلانويفا Villaneuva Siciliano القانون البيزنطى : Enciclopedia Guiridica فى دائرة المعارف القانونيه الايطالية : Diritto byzantino Italiana (Milano, 1906) ؛ وفيما يتعلق بالقانون الاسلامى (الشريعة) فلدينا مؤلفات أكثر ونكتفى بذكر ثلاثة كتب مدرسية حديثة : أورتز José Lopez Oritz القانون الاسلامى : Derecho Musulmano, (Barcelona, Labor, 1932) وبرجشتراسر Gotthelf Bergstrasser أسس القانون الاسلامى : Grundzüge des Islamischen Rechts (Berlin De Gruyter, 1935) ودى سانتللانا David de Santillana نظم القانون الاسلامى المالكى مع الاشارة إلى المذهب الشافعى : Istituzioni di diritto musulmano malichita con riguardo anche al sistema sciafiita (2vols, Rome, Istituto per l'Oriente, 1925 — 1938) وقد ورد ذكر بعض مؤلفات فى الشريعة الاسلامية والقانون البيزنطى أحدث من السابقة فى مقالة برك : Jacques Berque نقدا لأصول فى الاستشراق : Critique d'origine en Orientalisme المنشورة فى Annales: Economies, Sociétés, Civilisations, VII (1952), 469-74 وفى مجلد تكريم قسطنطين هرمنوبولوس Tomos Konstantinou Harmenopoulou الذى نشرته جامعة سالونيك بسالونيك ١٩٥٢ ، وأخيراً نذكر فيما يتعلق بالقانون اليهودى المؤلف الغنى بمراجعة لكيش Guido Kisch اليهود فى المانيا فى العصر الوسيط : The Jews in Medieval Germany, (Chicago, Universty of Chicago Press, 1949)

الفارسية التى تستخدم حتى الآن للدلالة على قوافل الصحراء) فى العصر الوسيط التأخر . وقد يعزو بعضهم هذا الانتقال اللغوى إلى انحطاط الملاحة البيزنطية بعد القرن العاشر ، ولكن ارث هـذه الملاحة انتقل إلى الإيطاليين لا إلى العرب ، وإذا كانت كلمة magasin أخذت عن اللفظة العربية مخازن ، فان كلمة boutique أخذت على اللفظة اليونانية apothéké (١) .

ومهما يكن الأمر فانه ليس من الحكمة أن نقبل الشواهد اللغوية قبولا أعمى فكلمة hôtel (فندق) أصبحت مألوفة لدى السياح فى كافة أنحاء العالم ، وهى تدل دون شك على المكانة الدولية للغة الفرنسية ، ولكنها لا تثبت بالطبع أن الفنادق اختراع فرنسى . وفى الواقع أن أكثر الألفاظ شيوعاً فى الغرب بين القرن الثامن والقرن الثانى عشر للدلالة على الفنادق كان اللفظ اليونانى xenodochium (٢) ولذلك وجب القيام بالمقارنة بين النظم وبيان ما بينها من

---

(١) تجد عن مادة الألفاظ العربية ملخصا سهلا فى جراسهوف : Richard Grasshoff السفنجة والحوالة عند العرب . بحث فى تاريخ الحوالات : Die Suftaja und hawala der Araber, ein Beitrag zur geschichte des Wechsels (Goettingen, Universitläts buchdruckerei, 1899) ؛ وعن بقايا الألفاظ العربية فى الأسبانية والبرتغالية خاصة أنظر تراث الاسلام الفصل الأول بقلم ترند : J. B. Trend ؛ وعن مادة الألفاظ اليونانية أنظر المقالة الباعثة على التفكير لبرتولدى : Vittorio Bertoldi التيارات القديمة للثقافة اليونانية فى غرب البحر المتوسط : Antiche correnti di cultura greca nel Mediterranco Occidentale المنشورة فى La Parola del Passato, I (1946), 33-68 ومن الغريب أن برتولدى ركز همه فى اليونانية القديمة وأهل ماساليا ولم يتجه تفكيره أبداً إلى البيزنطيين . وأنظر عن التغيرات العجيبة التى طرأت على معنى كلمة catabolus (وكان معناها فى الأصل رصيف الميناء) بحث فركوترن Fernand Vercauteren وعنوانه Cataplus et Catabolus والمنشور فى Bulletin Ducange, II (1925), 98-101 ؛ وقد ورد مثل آخر لهذه الكلمة بمعنى رصيف فى وثيقة لبرنجيه الأول Bérenger فى سنة ٩٠٥ . واستمرت هذه الكلمة مستعملة فى اقليم ليون للدلالة على الكوخ المستخدم للسكن على السفن التجارية فى نهرى الرون والسون (برتولدى ص ٣٨) .

(٢) المؤلفات التى تبحث الموضوعات التفصيلية المتعلقة بنظام الفنادق كثيرة جداً ، وتجد مراجع لا تقتصر على إيطاليا وحدها فى دليل المصادر الجيد الذى وضعه سابورى : Armando Sapori (التاجر الايطالى فى العصر الوسيط) : Le marchand italien au moyen-âge, (Paris, A. Colin, 1952) pp. 64-74. ؛ وعن أسبانيا أنظر دى بارجا وزملاءه =

أوجه الشبه وإثبات صحة الاشتقاق مما يتطلب معرفة واسعة بالشرق والغرب على السواء . وأننا نعترف أنه لم يوجد حتى الآن عالم له مثل هذا الإعداد اللازم ، ولا نود أن نختم هذا الفصل بالشكوى من العجز ولذلك فأننا سنعرض هنا لبعض الدراسات التى تناولت التفصيلات وهى دراسات فى دور البداية ، لا دراسات لرواد ترتفع معارفهم دائماً إلى مستوى نواياهم الصادقة .

وإنى أعرف منذ زمن طويل جداً أحد هؤلاء الذين توفرت لديهم النية الصادقة فلا أستطيع إلا أن أعرض له برفق مقصود ، وهو قد قال على سبيل المثال أن نظام الجالية التجارية ، وهى نواة مستقلة دائمة فى قلب بلاد أجنبية ، جاء إلى الغرب من بلاد بعيدة غاية البعد وهى الصين . ومع أن رومة وفارس الساسانيين لم تمنع قبائل بأسرها من الإقامة على أرضها والاحتفاظ بقوانينها الخاصة فانها حرمت على التجار الأجانب أن يتخطوا مدناً معينة تقع على مقربة من الحدود ، وهى المدن التى كانت تنعقد بها الأسواق الدولية التى تشرف عليها الدولة ، وكان من المفروض أن الأجانب بعد انتهاء الأسواق لا يلبثون أن يرجعوا إلى بلادهم . وهذا النظام الضار بنمو التجارة قد خففت منه الحكومة البيزنطية فأقامت بمراكز الحدود حوانيت ومساكن على أرصفة الأبحار وأبواب العاصمة ، ولكنها لم تلغ قيود الإقامة والتنقل . وسار الجرمان والعرب على هذه القواعد العامة نفسها مع تطبيقها بشىء من اللين . وفى الصين دون غيرها نجد منذ القرن الثامن جاليات مستقلة دائمة من التجار الأجانب سمح لهم بالإقامة فى البلاد وبحرية التنقل فى داخلها ، ووجد هذا النظام فيما بعد ذلك بقليل فى الهند وبلاد الخزر وبدأ وجوده فى الامبراطورية البيزنطية فى القرن العاشر وانتهى به الأمر إلى أن توطد على طول البحر المتوسط . فهل كانت مدينة كانتون الصينية مثلا احتذته القسطنطينية ثم أوروبا كلها بطريق غير مباشر؟ أما عن الصين فلابد أن تعلق الإجابة النهائية على ابحاث أكثر تعمقاً ، ولكن

= فى (الحج إلى سان جاك دى كومبوستل) من منشورات المجلس الأعلى للابحاث العلمية بمدريد:
L. Vasquez de Parga, J. M. Lacarra & J. Uria, Las peregrinaciones a Santiago de Compostela (3vols, Madrid - Consejo Superior de Investigaciones Cientificas, 1948-49).

العلاقة بين كلمة فندق العربية وبين كلمة fur co الإيطالية من ناحية ، وبين اللفظة الأخيرة وبين الدور والأحياء الخاصة بالتجار فى بقية أوروبا من ناحية أخرى هى علاقة واضحة على الرغم من التغيرات الشديدة التى تعرض لها النظام فى أثناء طريقه الطويل(١) .

ومجال الشك أكبر من أن تكون النقابات والحرف فى الغرب قد أخذت شيئاً عن الشرق ، وفضلا عن ذلك فان موضوع نشأتها من المسائل التى كثر فيها النقاش بين المؤرخين فى أوروبا ، وهى من الموضوعات التى لم تبحث إلا قليلا فى العالم الإسلامى والبيزنطى ، ولا شك فى أننا نشاهد فى القسطنطينية وبغداد وفى الوقت ذاته فى إيطاليا وأوروبا الشمالية الغربية ازدهاراً فجائياً فى المنظمات النقابية فى القرن العاشر تقريباً ولكن يجدر أن نتساءل إذا ما كان تكوين نقابات الحرف لا يعدو أن يكون ظاهرة حتمية تلقائية أينما جعلها النمو التجارى والصناعى أداة نافعة . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يجدر أن تتساءل إذا كان تكوينها إنما هو ازدهار جديد لأنظمة لم تختف تماماً أبداً . ومن غير المعقول أن نفترض وجود بقايا للأنظمة الرومانية (الكوليجيا) فى بلاد أوروبا الشمالية ، ولذلك يبدو أن نقابات الحرف فيها نشأت على أرضها ، ولما أصبح الجو الاقتصادى والاجتماعى ملائماً عاون اليمين الجرمانى أو قسم الولاء والارتباط بين الأشخاص على نضوج نظام طوائف الحرف أكثر مما عاون عليه تأثير الشرق البعيد . أما فى الجنوب فان الأمر على العكس ، وخاصة فى الأقاليم التى لم يتميز فيها العصر الوسيط الأول بانقطاع تام ، إذ نجد أن أوجه الشبه بطوائف الحرف الشرقية غالباً ظاهرة للعيان وأنه يمكن أحياناً أن نجد بينهما صلة اشتقاق ولكن هذا « التطعيم »

---

(١) لوبز R. S. Lopez فى مقالته (من السوق المؤقتة إلى الجالية الدائمة) : Du marché temporaire à la colonie permanente المنشورة فى Annales : Economies, Sociétés, Civilisations, IV (1949) 389-405 ويضاف إلى مراجع هذه المقالة البحث المفيد الذى نشره كوابارا Jitsuzo Kuwabara : دون ترتيب (بوشوكنج من رجال الأقاليم الغربية) : P'u Shou-kêng, a Man of the Western Regions فى Memoirs of the Research Department of the Toyo Bunko, II & VII (1928 & 1935).

لا بد أن يكون أقدم مما نسميه « بالنهضة الاقتصادية فى الغرب » وهذا المؤلف الذى سبق أن أشرت إلى تفسيره المعقد لنظام الجاليات التجارية حاول هو نفسه أن يثبت أن جماعات المشتغلين بسك النقود التى ظلت قائمة حتى القرن العاشر فى إيطاليا وفرنسا وجزء من ألمانيا كانت من أصل بيزنطى . ولكنه يرى أن هذه الصلة أو الانتساب ترجع إلى العصر الوسيط . أما طوائف الحرف التى عرفت فى رومة ورافنا باسم scholae ، وهى اغريقية فى إسمها ، أو الطوائف التى عرفت باسم ministeria فى بافيا وغيرها من المدن البعيدة كستراسبورج فيحتمل أنها نقلت إلى تنظيم الحرف فى العصر الوسيط المتأخر شيئاً من التقاليد البيزنطية السابقة على القرن العاشر . وفى ممالك إيبيريا المسيحية تكثر دلائل التأثير الاسلامى ، ولكننا فى إيبيريا لا ندرى أبداً متى أو أين ينتهى الشرق ويبدأ الغرب(١) .

---

(١) لا يمكننا ونحن فى انتظار الفصل الذى ستخصصه سيلفيا ثروب Sylvia Thrupp للنقابات فى تاريخ كمبردج الاقتصادى ج ٣ إلا أن نذكر مؤلفا واحدا عن النقابات فى كافة البلاد من الشرق القديم حتى الصين وهو المقالة المشتركة عن النقابات Guilds فى دائرة معارف العلوم الاجتماعية : Encyclopedia of the Social Sciences ؛ ولكن إذا كان كل قسم منها جيداً فى حد ذاته (ويكفى أن نذكر اسم أحد مؤلفيها وهو هنرى بيرن H. Pirenne) إلا أنه لم يبذل أى مجهود للتنسيق بينها فى خطة موحدة جامعة . ولدينا مع ذلك عن شمال أوروبا توضيح تاريخى وتوضيح للمراجع وذلك فى بحث كورنارت Emile Cornaert (نقابات العصر الوسيط) : Les ghildes médiévales المنشور فى المجلة التاريخية : Revue Historique, CXCIX (1948), 22-25, 208-43. ؛ وفى موضوع نقابات أوروبا الجنوبية وعلاقتها بالنقابات الرومانية والبيزنطية يمكن الاسترشاد بالمؤلفات التى اقتصرت على بحث فترات أو نواحى معينة ولكنها مزودة بمراجع شاملة مثل مكفتز : Gunnar Mickwitz (وظائف الجمعية فى نقابة الحرف وتفسيرها فى نشأة تكوين النقابات) الذى نشرته الجمعية الفلندية للعلوم بهلسنكى : Die Kartellfunktionen der Zünfte und ihre Bedeutung bei der Entstehung der Zunftwesens (Helsinki, Societas Scientiarum Fennica '1936) ومؤلف ليشت Pier Silverrio Leicht النقابات الرومانية والحرف الوسيطة : Corporazione romane e arte medievali (Turino, Einaudi, 1937) وتكمله ملاحظات كافالارى : Vittorio Cavallari عن عبارة : Guadiare se sub gastaldione المنشورة فى سلسلة الدراسة التاريخية الفيرونية : Studi Storici Veronesi, 1 (1948) ولوبز R. S. Lopez فى مقالته ، أرستقراطية مالية فى العصر الوسيط الأول : An aristocracy of Money in the Early Middle Ages المنشورة بمجلة : Speculum العدد ٢٨ (١٩٥٣) ص ١ — ٤٣ ؛ وعن أسبانيا خاصة =

ويحتمل أن يكون المجال الذى لابد أن نتوقع فيه أعمق تأثير هو مجال الائتمان والمصارف ، فالكلمة البيزنطية التى تدل على صاحب المصرف هى trapezista

---

= وهى لم تزدهر فيها الأبحاث الخاصة بالأصول نذكر الملاحظات العابرة التى أوردها فالدرفلانو : Luis G. de Valdervellano فى مقالته (السوق وخاصة لدراسته فى ليون وقشتاله) : El mercado, apunto para su estudio en Leon y castilla المنشورة فى سنوية Annuario de Historia del Dercho Español, VIII : تاريخ القانون الأسبانى (1931) ؛ ومؤلف ماير Ernst Mayer (تاريخ النظم الاجتماعية والسياسية فى أسبانيا والبرتغال) : Historia de las instituciones sociales y politicas de España y Portugal الذى نشرته جمعية نشر الدراسات والأبحاث العلمية بمدريد (Madrid, Junta para amplicaciàn de estudios é investigaciones cientificas, 1925-26), 2 vols. شيق ولكنه غير حريص غالباً ؛ البورنوث Claudios Sanchez Albornoz فى مؤلفه إفلاس نظام البلديات الرومانى وانقراضه فى أسبانيا) : Ruina y extincion del municipio romano ne España (Buenos Aires, Facultad de Filosafia y Letras, 1943) p. 142 ؛ من منشورات كلية الفلسفة والآداب ببونس ايرس .

وثمة عن النقابات البيزنطية قائمة نقدية بالمراجع فى تقريرين أولهما لاوستروجورسكى : Georges Ostrogorsky فى المجلة البيزنطية : Byzantinische Zeitschrift, XXXIII (1933), pp. 389-395 ، وثانيهما لبرييه : Louis Bréhier فى المجلة التاريخية : Revue Historique, CLXXXIV (1928), 356-58 ، وورد ذكر بعض المؤلفات لأحدث فى مقالة لوبز (أزمة البيزنط فى القرن العاشر وتاريخ كتاب الوالى : La crise du besant au Xe siècle et la date du Livre du Préfet فى مجموعة الأبحاث لتكريم هنرى جريجوار التى نشرها معهد فقه لغة وتاريخ البلاد الشرقية والصقلبية ببروكسل : (Institut de Philologie et d'Histoire Orientales et Slaves, Bruxelles, 1950), II, 403

وأنظر أيضاً سوزوموف : Suzomov فى مقالته Remesle i torgovlia v Vizantiski Vremennik المنسورة فى مجلة Konstantinopole v nacale x veka السلسة الجديدة عدد ٤ (١٩٥١) ، وعن البلاد الاسلامية نجد توضيحاً جيداً فى مقالة لويس المنشورة فى The Islamic Guilds : عن النقابات الاسلامية Bernad Lewis Economic History Review, VIII (1937), 20-37 : مجلة التاريخ الاقتصادى ويضاف إلى مراجعها مؤلف ليفى بروفنسال وجوميز (اشبيلية فى بداية القرن الثانى عشر الميلادى : رسالة ابن عبدون — Evariste Lévi-Provençal & Emilio Garcia Gomez, Sevilla a comienzos del siglo XII, el tratado de Ibn Abdun (Madrid, Moneda y credito, 1948) وهوترجمة حديثة روجعت على الأصل ،وماسينيون=

ونجدها فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر مستخدمة فى أقاليم بعيدة عن الشرق مثل بلجيكا وانجلترة وسانتونج ، ولجهابذة العراقيين فى القرن العاشر سمات كثيرة مشتركة مع أصحاب المصارف الجنويين فى القرن الثانى عشر وهم أول من نعرف عملياتهم بشىء من التفصيل من أصحاب هـذه المهنة فى الغرب ، ولكن هذه المعلومات لا تزال لسوء الحظ ناقصة . وقد تكون المـادة الخاصة بنظام المصرف الإسلامى قبل القرن الثانى عشر أكبر بكثير ولكنها لم تستغل استغلالا تاماً ، ومعلوماتنا عن المصرف البيزنطى أقل بكثير ولذلك فأننا مجبرون على الالتجاء للتخمين فى ميدان يصلح جد الصلاحية للدراسات المقارنة(١) .

= Louis Massignon ، الفتوة أو ميثاق الشرف المهنى بين العمال المسلمين فى العصر الوسيط La Futuwwa, ou pacte d'honneur artisanal entre les travailleurs musulmans au moyen-âge, Nouvelle Clio, IV (1952), 171-98 وتكمله ملاحظات سالنجر : Gérard Salinger فى مقالته هل كانت الفتوة شكلا شرقياً للفروسية Was the Futuwwa an Oriental Form of Chivalry ? المنشورة فى Proceedings of the American Philological Society, XCIV (1950) 481-93 ؛ وعن النقابات اليهودية أنظر الآن فشنتزر : Mark Wichnitzer هوامش لتاريخ للنقابات اليهودية : Notes to a History of the Jewish Guilds المنشورة فى سنوية كلية يونيون العبرية The Hebrew Union College Annual, XXXIII part 2 (Cincinnaty, 1950-51) 245-63. وبها المراجع .

(١) إن المؤلف الوحيد الجامع عن البنوك فى العصر الوسيط هو مؤلف أشر : Abbot P. Usher التاريخ الأول لبنوك الايداع فى أوروبا البحر المتوسط : The Early History of Deposit Banking in Mediterranean Europe, I (Cambridge, Mass., Harvard University Press 1943) وهو ليس إلا بداية ويكاد يقتصر على قطالونيا ويجب الرجوع إذن إلى الدراسات الخاصة بالتفصيلات وهى ليست كثيرة . وعن العالم الاسلامى أنظر خاصة فسكل : Walter J. Fischel اليهود فى الحياة الاقتصادية والسياسية للبلاد الاسلامية فى العصر الوسيط : The Jews in the Economic and Political Life of the Medieval Islam (London, Royal Asiatic Society, 1937) وبه المراجع ، ومقالة هفننج : W. Heffening عن التجارة فى دائرة المعارف الاسلامية ، ويا كوب : G. Jacob أقدم آثار الحوالات : Die Altesten Spuren des Wechsels من منشورات معهد اللغات الشرقية بجامعة برلين : Mitteilungen der Seminar für Orientalische Sprachen an d. Univ. zu Berlin (Westasiatische Studien, XXVIII (1925) ؛ وورد ذكر مؤلفات أخرى عن القرض فى الشريعة الاسلامية فى بحث =

وعلى العكس يمكن الآن أن نشير إلى بعض الأبحاث المثمرة فى مجالات أخرى فى القانون التجارى والبحرى ، وقد ثبت أن القانون البحرى لرودس ، وهو تجميع فردى من القانون البحرى البيزنطى فى العصر الوسيط الأول ، هو حجر الزاوية الذى بنيت عليه قوانين عرفية كثيرة انتشرت فى كافة موانى الغرب وسفنه لا فى البحر المتوسط فحسب ولكن فيما وراء مضيق جبل طارق أيضاً ويبدو أن عقود القروض الجماعية commenda التى لعبت دوراً أساسياً فى نمو التجارة البحرية الأوروبية ترتبط بالعقود البيزنطية chreokoinona = دين عام، daneion epi koinonia = قرض عام) والعقود الإسلامية (المقارضة

= بوسى : Emilio Bussi تصور التجارة والتاجر فى الفكر القانونى الاسلامى : Del concetto di commercio e di commerciante nel pensiero giuridico musulmano — Studi Aldo Alberoni, III (Padoue, Cedam, (1938) ؛ ومؤلف جراسهوف Grasshoff الذى سبق ذكره لا يبعث على ثقة كبيرة لتحمسه الزائد — وعن المصارف البيزنطية وفيما عدا المؤلفات عن النقابات (أنظر الهامش السابق) ليس لدينا إلا بحث قصير ولكنه يدعو إلى التفكير لكفتز : Gunnar Mickwitz أشكال تنظيم حرفتين بيزنطيتين فى القرن العاشر : Die Organisations formen zweier byzantinischer Gewerbe in X Jahrihundert, Byzantinische Zeitschrift, XXXVI (1936) 63-70. ومقالته (مشكلة من مشاكل التأثير : بيزنطة والاقتصاد فى الغرب الوسيط : Un problème d'influence : Byzance et l'économie de l'Occident médiéval — Annales d'Histoire Economique & Sociales, VIII (1936) 21-28. مقالة شيقة ككل مايدبجه قلم هذا العالم ولكنها لا تتفق مع المؤمل من عنوانها — ونكاد لانعرف شيئاً عن القروض فى الغرب فى العصر الوسيط الأول ، وتجد بعض المراجع والملاحظات المتناثرة فى مقالتى : أرستقراطية المال المذكورة فى الهامش السابق — وعن البنوك الجنوية فى القرن الثانى عشر أنظر توتشى Raffaele di Tucci دراسات فى الاقتصاد الجنوى فى القرن الثانى عشر : Studi sull'economia genovese del secolo XII (Turin, Bocca, 1933) ومرجريت هول Margaret Hall قدامى أصحاب البنوك فى وثائق الموثقين الجنويين : Early Bankers in the Genoese Notarial Records — Economic History Review, VI (1935), 73-79 ، ولكل منهما عيوبه ولكنهما لا يستحقان الهجوم العنيف الذى قام به سايو : André E. Sayous وأحسن الرد عليه رينولد : Robert L. Reynolds فى الدراسات الأمريكية عن تاريخ جنوة : Gli Studi Americani sulla storia genovese — Giornale Storico e Letterario della Liguria, XIV (1938), 1-27. ؛ وأنظر أيضاً رينولدز (صفقة أعمال فى جنوة فى عام ١٢٠٠ : A. Business Affair in Genoa in the year 1200 — Studi di Storia in onore di Enrico Besta, II (Milan, Giuffré, 1939), 165-81.

وشركة العنان) المماثلة وإن تكن التفصيلات حتى الآن موضع جدل عنيف بين المؤرخين والقانونيين والاقتصاديين ، وفى البلاد التى خضعت للمسلمين احتفظ عقد ربا عرف بالمهاترة زمناً طويلا باسمه ومميزاته فى العرف القانونى الأسبانى (١)

ولا شك أن أمثلة واشتقاقات أخرى ستتضح إذا ما أولت دراسات القانون المقارن العلاقات بين الشرق والغرب ما هى جديرة به من الاهتمام ، ومن الممكن أن يعترض على اشتقاق النظم القانونية بنفس الاعتراض الذى وجه إلى اشتقاق المخترعات الفنية وهو أن لكليهما فى الغالب جذوراً ترجع إلى العصر الرومانى القديم ، وان الغرب لم يتخذها دون تعديل ولا يقلل هذا الاعتراض من أهمية الشعلة التى جاءت من الشرق فى وقت كان الوقود فيه معداً للاشتعال .

---

(١) لا يزال المؤلف الأساسى عن القانون البحرى البيزنطى وتأثيره هو مؤلف اشبورنر : Walter Ashburner القانون البحرى الرودسى : The Rhodian Sea Law (Oxofrd, Clarendon Press, 1909) ، وأنظر أيضاً عن أوروبا الشمالية سانبورن : Frederick R. Sanborn الأصول الأولى للقانون البحرى والتجارى الانجليزى : Origins of the Early English Maritime and Commercial Law (New-York, The Century, 1930) المنشور بنيويورك وبه المراجع ؛ وعن عقد المشاركة commenda الذى لا يزال موضع جدل منذ ١٨٨٠ تقريبا فان بحث استوتى : Guido Astuti نشأة عقد المشاركة وتطورها التاريخى حتى القرن الثانى عشر : Origini e svolgimento storico della commenda fino al secolo XII (Truni, Lattes, 1933) يبدولى متفوقاً على غيره بقوة الأدلة وسعة الأفق ولكنه يغفل تماماً العقود الإسلامية التى يجب الرجوع فى بحثها إلى كوهلر : Joseph Kohler المشاركة فى القانون الإسلامى : D:e Commenda in Islamitischen Rechte (Würzburg, 1885) ، وعن عقد المهاترة نلاحظ أن العقود الصورية من هذا القبيل سبق أن أشار إلى وجودها فى لمبارديا فى القرن العاشر Violante فى مؤلفه السابق ص ٥٩ وما بعدها . ويستحيل تقديم قائمة صالحة بالمراجع فى الهوامش وتجد قائمة مراجع كاملة نوعاً فى مؤلفات Lopez–Raymond, و Besta المذكورة سابقاً فى ص ١٥٥ هامش (١) ، وفى زينو : Rimiero Zeno بصفة خاصة « تاريخ القانون البحرى الإيطالى فى البحر المتوسط : Storia del diritto marittimo italiano nel mediterraneo (Milan, Giuffrè, 1946) والكتاب نفسه لا يعد من أحسن الكتب المؤلفة فى هذا الموضوع .

(٤)

وإذا كانت المساهمة الثقافية المباشرة هى من أهم نتائج التأثيرات الشرقية فأنها مع ذلك لا تؤثر إلا فى قطاع بعينه ولا تبعد عن السطح ، وبغض النظر عن دور الشرق معلماً فانه قد أثر بكليته على مصائر أوروبا بمجرد وجوده ، فماذا كان يصبح مصير الغرب فى عصر ازدهاره الجديد لو أنه كان على يمينه ويساره محيط شاسع مجهول ؟ انه كان على وجه التأكيد يستطيع إطعام عدد أكبر من السكان باستغلال أرضه استغلالا أشمل وأدق ، ولكنه كان لا يسهل عليه تنمية حضارة مدنية وتجارية فى قوة الحضارة التى سادت العصر الوسيط المتأخر وعصر النهضة الأوروبية من الناحية المعنوية إن لم تكن المادية ، وكانت أوروبا تصبح كالصين التى لم تتصل بامم مجاورة متقدمة فتستقر على أساس الزراعة ولا يكاد أن يكون فيها تأثير لطبقات التجار والصناع .

صحيح أن بعض العلماء حاول التقليل من شأن الدور الذى قام به الشرق ، بله دور جنوب أوروبا فى نمو أوروبا الشمالية التى يرون أنه كانت لها سلع للتبادل خاصة بها تتكون بصفة خاصة من الأغذية والمواد الخام كبيرة الحجم ، وأنه كان فى استطاعتها أن تنضج حضارتها المدنية والتجارية الخاصة بها دون مساهمة التجارة الراقية بين أوروبا الجنوبية والشرق(١) . وهذا أمر محتمل وإن يكن لا يمكن إثباته ، فلم تكن هناك حواجز مانعة بين الشمال والجنوب الأوروبى ، وإن أسماك الرنجة وأصواف الأقاليم الشمالية غالباً ما استخدمت فى المقايضة عليها بالفلفل والحرير الواردين من الشرق الأقصى بوساطة التجار الإيطاليين والقطالونيين والبروفنساليين ، وقد أرسلت آسيا وأفريقيا أشعة تأثيرهما

---

(١) وقد لقيت هذه النظرية أخيراً مدافعاً قوياً لامعاً عنها فى شخص Michael M. Postan ونكتفى بذكر تاريخ كمبردج الاقتصادى ج ٢ ف ٤ ، وانتشار الصناعات : ايطاليا والنمو الاقتصادى لانجلترة فى العصور الوسطى : Spread of Techniques : Italy and the Economic Development of England in the MiddleAges مقال منشور فى صحيفة التاريخ الاقتصادى : Journal of Economic History, XI (1951) 338-46. وحججه لا شك تبعث على التفكير ولكن يبدو لى أنه يبالغ فيها بعض الشىء .

بطريقة مباشرة أو غير مباشرة فى أقصى أركان أوروبا ، ويستحيل فعلا كتابة تاريخ لأوروبا سواء أكان تاريخاً اقتصادياً أو غيره دون اعتبار تاريخ القارتين الاخريين فى كل آن .

وسنجتهد فى الصفحات التالية أن نرسم المراحل الكبرى للانقلاب فى الأوضاع الذى هيأ لأوروبا بلوغ كامل قواها ، وهو أمر حدث بالتعاون والتباين مع الشرق قبل أن يكون فى إمكان الغرب أن يتممه وحده . لقد استلزم الأمر أولا استرجاع القلاع الهامة من المسلمين والبيزنطيين ، وكذلك استرجاع السيادة الاقتصادية التى نجحوا فى إقامتها فى قلب الغرب ، ثم منافستهم فى بلادهم والتفوق عليهم بالحصول مباشرة على التوابل والحرير من مصادرها . وفى أثناء هذا الوقت دعم الغرب اقتصاده إلى حد أن علاقاته بالشرق أصبحت ثانوية .

ان أوروبا قد ولدت فى القرن العاشر فى مشارف الامبراطوريات الكبرى فى الشرق الأدنى (الليفانت) وأصبحت منذ ذلك الوقت تعد الشرق الأدنى كأنه من مشارفها الخاصة وبحثنا التاريخى لا يحتاج إلى السير أبعد من ذلك (١) .

---

(١) أعود فى هذا القسم والذى يليه إلى تناول الخطة التى سبق أن وضعتها فى تاريخ كمبردج لاقتصادى ج ٢ ف ٥ مع تعديلات أساسية وقد نشر هذا الفصل ١٩٥٢ ولكنه كتب ١٩٤٦ ونقح لآخر مرة فى أوائل ١٩٤٧ ، وهو مزود بقائمة مراجع من عشرين صفحة (ص٥٣٧ — ٥٥٦) أحيل إليها معتذراً واكتفى هنا بذكر بعض المؤلفات التى ظهرت بعد ١٩٤٦ أو التى لم تذكر فى نهاية ذلك الفصل . وهناك مؤلف واحد تناول الفترة كلها ولكن من زاوية مختلفة وهو تشى : Roberto Cessi الشرق والغرب فى العصر الوسيط : Oriente e Occidente nel medio evo فى مجموعة مسائل التاريخ الوسيط : Questioni di Storia Medievale باشراف (Como, Marzorati, 1946) pp. 129-231 — Ettore Rota وإنى أعتذر مع هذا عن القيام ببعض الاستثناءات فى البداية وذلك بذكر مؤلفين قديمين لم يحل محلهما شىء وكان لها فضل تمهيد الطريق وهما من الأعمال التى راعى فيها المؤلفان ما تفرضه الذمة والضمير ويشهدان على قدرة ألمانيا حين كان « مجالها الحيوى » كافياً لها أولها مؤلف هيد : William Heyd تاريخ تجارة الشرق الأدنى فى العصور الوسطى : Histoire du commerce du Levant au moyen-âge (2 vols., Leipzig, Harrasowitz, 1885) وثانيهما مؤلف شاوبه Adolf Schaube تاريخ التجارة عند الشعوب الرومانية فى حوض البحر المتوسط حتى نهاية الحملات الصليبية : Handelsgeschichte der Romanischen Völker des Mittelmeersgebiets bis zum Ende der Kreuzzüge (Munich, Olden bourg, 1906) وإلى جانب هذين المؤلفين أحب أن أذكر مؤلفا أقدم منهما ولكنه يبدو أنه مؤلف لاينال منه القدم وهو مؤلف =

كانت المرحلة الأولى فى هـذا التطور أطول المراحل وأشقها ، إذ تطلب الأمر التغلب على العقبات التى كانت قائمة فى كل صوب تقريباً ، وهى كذلك كانت أهم المراحل — وأشد حسماً من العصر الذى أعقبها وفاقها ازدهاراً . أما موارد أوروبا الأولى من رؤوس الأموال والأساليب الصناعية الفنية والتقاليد فأنها كانت أقل بكثير من موارد الشرق التى جمعها خلال قرون من الغلبة والسيادة الحقة ، وقد نهضت أوروبا وهى فقيرة فى كل شىء ماعدا الرجال ، ولكن هؤلاء الرجال أو معظمهم كانت لهم ميزة وهى أنهم كانوا يستطيعون المخاطرة بالشىء الكثير لأن خسارتهم لن تكون إلا قليلة ومكاسبهم كبيرة ، ولهذا حدثت فى البداية حرب لم تشتهر ، حرب عصابات عسكرية واقتصادية إلى حد ما قوامها الهجوم الصغير على الجيوش والأساطيل القوية والأرباح الصغيرة المأخوذة من تجار وصناع أكثر براعة ، وسهل النجاح الأول نجاحاً غيره أكثر أهمية ، ولكن الشرق كان دائماً يمد الغرب بوسائل قتاله له وهى أمواله وخبرته(١) .

= امارى Michele Amari تاريخ المسلمين فى صقلية : Storia dei Musulmani di Sicilia الطبعة الأولى ١٨٥٤–١٨٧٢ والطبعة الثانية راجعها نللينو : (Catane, Prampolini–Carlo Nallino 1933 – 42) ؛ ومؤلفا أثار الجدال ولكنه لا يقدم لبيرن Henri Pirenne التاريخ الاقتصادى للغرب الوسيط Histoire Economique de l'occident medieval, Bruges, Desclée de Brouwer, 1951) ونذكر أخيراً وفى هذه البداية دائماً وخاصة لأن ايطاليا فى المقدمة فى ميدان تاريخ العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب المؤلف البديع الذى وضعه لوتزاتو Gino Luzzato التاريخ الاقتصادى لايطاليا الجزء الأول (العصر القديم والعصر الوسيط) Storia Economica d'Italia, I (L'Antichità e il Medio Evo — Rome, Edizioni Leonardo, 1949)

(١) مما يبعث على الأسف أن مؤرخى الاقتصاد أغفلوا هـذه الفترة وركزوا إهتمامهم فى الفترة السابقة عليها أو الفترة اللاحقة بها كما لو أنها ليست إلا منخفضاً بين شاهقين ، والوثائق المتعلقة بها قليلة إلا أنها على قلتها أكثر من الوثائق التى نشأ عنها فيض من المناقشات بصدد نظريات بيرن وإذا أخذنا القرنين الحادى عشر والثانى عشر فى مجموعهما فاننا نجد أنهما فى الغالب لم يبحثا لذاتهما وإنما كان بحثهما من حيث تعرضهما للتيارات العميقة الناشئة من موضوعات جدلية أخرى . أنظر مثلا المؤلف الحديث للويس Archibald R. Lewis القوى البحرية والتجارة فى البحر المتوسط ٥٠٠ – ١١٠٠ م Naval Power and Trade in the Mediterranean A.D. 500-1100 (Princeton, Princeton University Press (1951) وبه المراجع ، وقد ترجمه إلى العربية بعنوان القوى البحرية والتجارية =

وليست لدينا معلومات وافية عن هذه الحرب الصغيرة التى استمرت طيلة قرنين — العاشر والحادى عشر — وانتهت مع ذلك بطرد العرب والروم من الشمال الغربى للبحر المتوسط والتحول إلى الهجوم على بحار العدو وأراضيه ،

= فى حوض البحر المتوسط أحمد محمد عيسى وقدم له وراجعه الأستاذ محمد شفيق غربال ونشرته مؤسسة فرانكلين ١٩٦٠) ولذلك وجب الرجوع إلى المؤلفات العامة فى التاريخ الاقتصادى أو إلى الأبحاث المحلية ومن بينها الأبحاث الخاصة بنشأة المدن ولها غالباً أهمية خاصة للموضوع على الرغم من أنها لا تعالجه إلا بطريق غير مباشر . ويمكن أن نذكر من الدراسات الحديثة سلسلة المؤلفات الخاصة ببداية عصر استعادة أسبانيا من العرب والتى أحصى كونتزكه : Richard Konetzke أهمها حتى ١٩٤٩ فى المجلة التاريخية : Historische Zeitung العدد ١٧٢ (١٩٥١) ص٥٩١ وما بعدها . وفى المستقبل يمكن استخدام الاداة الببليوجرافية القيمة التى تعدنا به المجلة الأسبانية الجديدة (الفهرس التاريخى الأسبانى) : Indice Historico Español التى تصدرها جامعة برشلونة (العدد الأول يناير — مارس ١٩٥٣) ؛ وعن جنوب فرنسا لا أعرف إلا مؤلفا واحدا ظهر بعد ١٩٤٦ يهمنا بصفة مباشرة وهو الذى أعدته برنو : Régine Pernoud فى الجزء الأول من « تاريخ التجارة فى مرسيليا : Histoire du Commerce de Marseille (Paris, Plon, 1950) G. Rambert باشراف رامبير ولكن لسوء حظ نجد أن هذا القسم على خلاف الأبحاث الممتازة التى نشرها باراتييه Eoduard Baratier ورينو Félix Reynaud والمتعلقة بالعصر الوسيط الأول ، لا يقدم شيئا مبتكرا ولا يحوى دائما المراجع الحديثة ، ونأمل أن فريق البحاث المشتركين فى مجلة بروفانس : Revue de Provence وحوليات الجنوب : Annales du Midi سوف يلقى أضواء جديدة . وعن إيطاليا التى تعد فيها الأبحاث عن نشأة المدن من موضوعات الساعة نجد أن قائمة المراجع الأساسية حتى ١٩٤٠ قد ورد ذكرها فى بريتزى : Paolo Brezzi كومونات المواطنين الايطالية : نشأتها وتكوينها الأول : I communi cittadini Italiani, origine e primitiva costituzione (Milan , Instituto di Politica Internazionale, 1940) ؛ ولكن من الضرورى متابعة المجلات المحلية للمدن والاقاليم التى تأثرت بالنهضة فى الغرب . ويضاف إلى قائمة المؤلفات الحديثة عن التاريخ الاقتصادى الايطالى التى نشرها تشيبولا Carlo M. Cipolla فى مجلة التاريخ الاقتصادى Economic History Review, Série 2, IV (1951) 271-78 بعض البحوث فى تاريخ المدن مثل فاكارى : Pietro Vaccari الملامح التاريخية لمدينة بافيا Profilo Storico di Pavia (Pavia, دون اسم الناشر 1951) ؛ وفرجانو : Lodovico Vergano تاريخ مدينة استى : Storia di Asti الأجزاء ١ ، ٢ مجلة Rivista di Storia, arte e archeologia per le province di Alessandria e Asti, LIX-LXI (1951-52) ؛ ومانشينى : Augusto Mancini تاريخ مدينة لوكا : Storia di Lucca (Florence, Sansoni, 1950) ، وقد أعلنت الغرفة التجارية بسالرنو أنها ستنشر قريبا تاريخا اقتصاديا لاقليم سالرنو : Storia Economica del Salernitano تخصص فيه مجلداً للعصر الوسيط ، ولسنا نريد أن نزيد هذه القائمة طولا على طول ولكننا نذكر أن تاريخ المدن فى البلاد الأخرى غير بلاد البحر المتوسط له أهمية بالنسبة لموضوعنا ، وان المعلومات غيرالكافية فى المصادر الغربية يجب أن تكملها دائما المعلومات =

ولم تبلغ الحملات البرية والبحرية من الشهرة ما يسترعى انتباه المؤرخين إلا فى آخر أمرها ، ولا نكاد نعلم شيئاً عن التحرشات التجارية التى سبقت المنافسة العلنية ، والمصادر السياسية والأدبية تكاد لا تذكر إلا عرضاً شيئاً عن تجار الغرب وسلعه التى أخذت تتوغل تدريجياً فى الأراضى التى كانت خاضعة لسيادة أهل الشرق . وليست لدينا وثائق اقتصادية فيما عدا بعض بقايا العقود الموثقة للبندقية ، وتجارة البندقية كما رأينا ليست حـدثاً جديداً ولا تمثل انتصار الغرب تماماً ، فالبندقية هى بيزنطة إلى حد ما مثلها فى ذلك مثل أمالفى وجاييتا وبارى ونابولى التى توطد مركزها فى الوقت نفسه الذى توطد فيه مركز البندقية وإن تكن ظلت فى مركز أقل منها شأناً . إلا أن تحرر هذه المدن تدريجياً ورجوعها إلى حظيرة الأسرة الغربية دليل على نهضة أوروبا ، وظهور مدن جديدة فى الميدان أمر أبلغ فى دلالته ، فتوطد مركز بيزة وجنوة وتألق نجمها ، ونجد أحياناً ولا سيما فى نهاية القرن الحادى عشر تقريباً مراكز أخرى بروفنسالية ولانجدوكية وقطالونية بل أننا نجد — وإن يكن ذلك نادراً — مدناً وشعوباً

= الغزيرة فى المصادر الشرقية ، وهنا أيضا لا نجد أدوات البحث التى نود وجودها ، ونحن فى إنتظار قيام لومبارد : Maurice Lombard بوضع التاريخ الاقتصادى للبلاد الاسلامية الذى تذوقنا طرفا منه وأن انعدمت به المراجع فى مقالته الذهب الاسلامى حتى القرن الحادى عشر : L'or musulman du VIIe au XIe Siècle المنشورة فى مجلة Annales : Economies, Sociétés, Civilisations II (1947) وهى من المقالات المترجمة فى هذه المجموعة) ، ووجب والحالة هذه الاكتفاء بالمؤلفات الخاصة بالموضوعات التفصيلية التى ذكرتها فى قائمة المراجع فى الفصل الذى وضعته لتاريخ كمبردج الاقتصادى . ويضاف إليها مارسيه : Georges Marçais بلاد البربر الاسلامية والشرق فى العصر الوسيط : La Berbérie Musulmane et l'Orient au moyen-âge (Paris, Aubier, 1946) ، وجاراندى Ramon Garande الحوالة الاقتصادية فى العواصم الأسبانية الاسلامية : La huella economica de las capitales hispano-musulmanas فى صحيفة Moeneda e Credito يونيو ١٩٤٩

وعن الاقتصاد البيزنطى فان الملخص الذى وضعة رنسيمان : Steven Runciman لتاريخ كمبردج الاقتصادى ج ٢ ف ٣ لا يمكن أن يقوم مقام التاريخ الطويل الذى كان سيقدمه لنا اندريادس : André Andréades لو أنه ظل حيا ، والفصلان اللذان نشرهما من هذا التاريخ فى مجلة Byzantion وقد سبق الاشارة إليهما ص ١٥٤ الهامش (١) يبنيان الخطوط الرئيسية فيه . ولا يعرف أحد مصير براتيانو : George Bratianu الذى يبدو أن مؤلفه السابق ذكره فى الهامش ٢ كان يطمح إلى خطة أشمل . ويضاف إلى المراجع المذكورة فى هذه المؤلفات وفى المؤلفات التى سبق ذكرها فى ص ١٥٤ الهامش رقم (١) المراجع التى ذكرها شارانيس : Peter Charanis فى مقالته البناء الاجتماعى للامبراطورية الرومانية الأخيرة فى مجلة Byzantion العدد ١٧ (١٩٤٤ — ١٩٤٥) ص ٣٩ — ٥٧ .

داخلية . ومن المؤكد أن أوروبا قبل الحرب الصليبية بكثير لم تعد فى ميدان التجارة الدولية بلاداً شبيهة بالمستعمرات ، وأن هذا التغير لم يمكن حدوثه إلا تدريجياً ، وفى إمكاننا أن نحاول اعتماداً على الحقائق القليلة المعروفة ، استرجاع سير هذه الثورة البطيئة .

ولنبحث أولا مشكلة رؤوس الأموال فلا شك أن أوروبا لم تنعدم لديها رؤوس الأموال تماماً حتى فى بداية الأمر ، ومنذ القرن العاشر شهدت أوروبا ازدهاراً جديداً فى البحث عن المناجم واستغلالها ، واستردت معادن ثمينة أخرى بصهر المصوغات الذهبية التى ادخرت فيها بساطة العصر السابق ثروات عديمة الفائدة تكاد تعطل الحركة . وفى طرق الدفع المختلفة لعب الدفع بالأجل دوره دون شك، ولكن القروض لا تعطى إلا للأغنياء وهذا معناه أن البنادقة واليهود وحدهم استطاعوا استخدام هذه الطريقة على نطاق واسع منذ القرن العاشر . أما من أعوزتهم الأموال أو القروض فأنهم حصلوا عليها غالباً بطريق الحرب. وعلى سبيل المثال نذكر فقط نهب قيصرية بفلسطين (١١٠٠) وإن يكن قد وقع بعد الفترة التى نبحثها الآن : منح الفاتحون الجنوبيون منحاً خاصة للضباط ، واحتفظوا ببعض الكنوز لكاتدرائيتهم ، وبنسبة قدرها ١٥٪ من الغنيمة لأصحاب السفن ، ووزعوا على كل فرد نزل بها من الملاحين والجنود الذين بلغ عددهم ثمانية آلاف ٤٨ صلدياً نقداً عاجلا ورطلين (لبرا) من الفلفل لا يقل ثمنها دون شك عن ثمانية ليرات فضية . وهكذا تحول ثمانية آلاف من الرجال إلى رأسماليين صغار إن لم يكونوا قد أصبحوا كذلك من قبل وأصبح من شأنهم دون غيرهم استثمار هـذه البذرة الأولى فى نفس البلاد التى حصـلوا عليها فيها غالباً .

إلا أن هذه المبالغ التى نهبت فى ميدان القتال لم تكن أكبر ما أسهم به الشرق فى نمو الرأسمالية الأوروبية . وفى ميدان المقامرة التجارية يمكن أن يتضاعف المبلغ الصغير أو يختفى المبلغ الكبير ، وقد هيأ الشرق لتجارة البلاد الفقيرة أسواقاً يغمرها الذهب والفضة يمكن أن يتناول البيع والشراء فيها فى دفعة واحدة كميات لا تستطيع الأسواق الأوروبية تصريفها إلا بعدد كبير من الصفقات الطويلة المتأنية ، وقبل القرن العاشر استغل وسطاء التبادل

بين الشرق الأدنى وأوروبا الفرق بين مستوى الأسعار والأجور فى كل منهما ، وكان قوام الحياة فى كل منهما يختلف عن الآخر ؛ ولكن معظم هؤلاء الوسطاء لم يكونوا من أهل الغرب ، وكان لا بد لهم فى كافة الأحوال من الخضوع للمطالب والقواعد الخاصة بالأسواق والمساكن المعدة للأجانب التى تشرف عليها حكومات الشرق . أما فيما بعد القرن العاشر فان أهل الغرب هم الذين قاموا بعقد معظم الصفقات وجنى معظم الأرباح ، وكان من العبث ازدراؤهم أو منعهم من العمل فى هذا الفرع من التجارة أو ذاك ، فهربوا ما عجزوا عن استيراده أو تصديره قانوناً ، وتحايلوا على القانون أو نجحوا فى تعديله ، وإذا ما صدوا لم يترددوا من الالتجاء إلى القوة لفتح كافة الأبواب المغلقة أمامهم حتى أن امبراطوراً قوياً كنيقوفور فوكاس لم ينجح دائماً فى منع تجارة التهريب التى قام بها البنادقة والامالفيون وكانوا حتى القرن العاشر من رعاياه اسماً . وقبل نهاية القرن الحادى عشر ساوم البنادقة فى عام ١٠٨٢ الامبراطور الكسيس كومنين على تأييدهم له مقابل إعفائهم إعفاء تاماً من الرسوم الجمركية بل ومن التفتيش الجمركى ، وأزيد من ذلك أنهم حصلوا على الضرائب التى كان الامالفيون لا يزالون مضطرين لدفعها . وبعد ذلك بستة أعوام استولى البيزيون والجنويون على عاصمة الزيريين بتونس وحصلوا على إعفاء مماثل من الرسوم الجمركية فضلا عن تعويضات حربية ، وفى الوقت نفسه بدأت الجاليات الغربية الدائمة تقيم على السواحل البيزنطية والإسلامية ومر عن طريقها معظم التجارة وسرعان ما انتقل ذهب الشرق وفضته من أيد إلى أخرى .

كل ذلك لم يكن ليؤدى إلى نتائج خطيرة لو أن حجم المبادلات بين الشرق والغرب ظل على ما كان عليه من الضعف فى أثناء العصر الوسيط الأول ، ولكن أوروبا زادت باستمرار فى إنتاجها كما ونوعاً ولما زاد تصديرها زاد ستيرادها وكان نموها قبل كل شىء نتيجة لجهودها الخاصة ولكن اتصالها بالشرق كانت له آثاره . وما حدث فى ميدان العلوم والفنون يبدو أنه تحقق كذلك فى ميدان الإنتاج المادى — حدث فى فن العمارة أن انتقل الغرب غالباً من استيراد الصناع والفنانين البيزنطيين إلى تقليد موضوعات انتاجهم ثم إلى إنشاء موضوعات مستقلة إلى حد ما ووصل أخيراً إلى ازدهار كامل فى فنه الجديد .

كذلك حدث فيما بين القرن العاشر والقرن الثالث عشر أن استيراد صناع الحرير أو المصنوعات الحريرية التي يمكن اتخاذها نموذجاً أعقبه صنع منسوجات مقلدة ثم إنشاء رسوم تشابكت فيها الزخارف البيزنطية والإسلامية بطريقة مبتكرة ، ووصل الأمر فى النهاية إلى اتخاذ رسوم جديدة تماماً . وكانت لوكا فى طليعة المدن العاملة فى هذا الميدان ، وسبقت أسبانيا المسيحية غيرها فى أشغال الجلود التى اشتهرت بها حتى قبل الفتح الإسلامى ، وفيما بعد ذلك بقليل فى القرن الثانى عشر ظهرت صناعة الورق فى أسبانيا وصقلية وأصبح مركزها الرئيسى فى فابريانو فى واد منعزل من أودية جبال الابنين ، ومن ناحية أخرى ازدادت الزراعة بما دخل فيها من نباتات وطرق كانت مجهولة أو نادرة فيما عدا البلاد العربية .

وحتى ذلك الحين لم تقض هذه المنتجات الغربية التى احتذت الطريقة الشرقية على الإقبال على المنتجات الشرقية الأصيلة ولكنها كانت كافية لسد حاجة معظم الاستهلاك المحلى ، وكانت بمثابة خطى فى سبيل مستقبل أزهر . وقد أعجب أحد تجار بغداد فى القرن العاشر ببعض المنسوجات الصوفية المصنوعة فى نابولى ، ومع ذلك فان معظم صادرات أوروبا إلى الشرق فى القرنين العاشر والحادى عشر كانت من المواد الخام أساساً ، وقلت أهمية الرقيق فى تجارة السلع المصدرة وزادت أهمية السفن الخشبية والأسلحة الفولاذية جنباً إلى جنب مع أخشاب البناء ومعادن الحديد . وهكذا نجد أن الشرق كان يمد الغرب بالمعارف التى سيستخدمها يوماً فى التغلب عليه فى حين أن الغرب كان يمد الشرق بالأسلحة التى سيستخدمها فى قتاله ، ولكن الغرب كان يصنع من الأسلحة ما يكفى لعدم حرمانه منها وقد أثبتت الحروب الصليبية الثمانية هذه الحقيقة إثباتاً قاطعاً .

(٥)

ومن التزيد فى القول بيان أهمية الحروب الصليبية من حيث هى عوامل لاشتداد الصلات الاقتصادية بين الشرق والغرب(١) ولا يجهل أحد أن الغنائم

---

(١) نترك العبء الثقيل الخاص بجمع المراجع المتعلقة بهذا الموضوع إلى المشرفين على المؤلف الحديث فى تاريخ الحروب الصليبية والذى يعد برعاية جامعة فيلادلفيا بمعاونة أكثر من خمسين مختصاً من كافة البلاد . وسنكتفى فى الهوامش التالية بذكر بعض المؤلفات الحديثة التى لم=

كانت أحياناً ضخمة ولا سيما فى الحربين الصليبيتين الأولى والرابعة ، وأن الغالبين أغرموا بأسلوب الحياة عند المغلوبين ونقلوا هذا الميل إلى أبناء وطنهم ، وأن الفتوح استخدمت كقواعد لتوغل تجارى متزايد، وأن آثار هذه الحروب

= تذكر فى المراجع التى أشار إليها جروسيه ورنسيمان فى آخر ما وضع عن الحروب الصليبية ، وسنعتمد على مؤلفيهما فى بعض ملاحظاتنا . ومن المفيد فى هـذا الهامش تنقيح قائمة المراجع الخاصة بوثائق الموثقين والتى بدأها R.S. Lopez فى مقالته « الكنوز المجهولة فى وثائق الموثقين فى بيزا ولوكا » The Unexplored Wealth of the Notarial Archives in Pisa and Lucca المنشورة فى « المقالات المتفرقة فى تاريخ العصر الوسيط المهداة إلى ذكرى لوى هلفن » Mélange d'histoire du moyen-âge dediés à la mémoire de Louis Halphen (Paris, Presses Universitaires de France, 1951), 417. ذلك لأن الوثائق الخاصة أهم من غيرها بالنسبة للتاريخ الاقتصادى وهى فى الوقت نفسه أصعب منالا ، وعلى هذا فاننا نشير للاضافات الحديثة إلى سلسلة الموثقين الليجوريين (جنوة) فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر Notai Liguri dei secoli XIIe-XIII والتى قام بها كروجر ورينولدز Hilmar C. Krueger &Robert L. Reynolds فى مؤلفهما عن الموثق لانفرانكو Lanfranco (1202-1226) والذى نشرته الجمعية الليجورية للتاريخ القومى بجنوة فى ثلاثة مجلدات (Gênes, Societâ Ligure di Storia Patria, 1953) 3 volts. وقد ظهرت طبعتان حديثتان عن بعض الموثقين البنادقة فى البلاد التابعة للبندقية فقشر موروتزو دلاروكا Raimondo Morozzo della Rocca بنفنوتو البريشياوى الموثق بكندية (كريت) Benvenuto de Brixano notaio in Candia (1301-02) Venise, Alfieri, 1950 ؛ ونشر لومباردو Antonio Lombardo بسكوالى لونجو الموثق بكورون Pasquale Longo, notaio in Corone (189-1293) Venise, Deputazione di Storia Patria, 1951 والمجلد الرابع الذى نشرته دوهاروكيرمانس Renée Doehaerd & Charles Kerremans فى السلسلة الخاصة « بالعلاقات بين جنوه وبلجيكا وما وراء الألب تبعاً لوثائق الموثقين بجنوة Les Relations entre Gênes, la Belgique et l'Outremont d'après les archives notariales génoises (بروكسل المعهد التاريخى البلجيكى بروما ١٩٥٢ Institut Historique Belge de Rome, 1952 ، ونشرت الأكاديمية اليوجوسلافية حديثا أول مجلد من سلسلة الوثائق الكاتارية Monumenta Catorensia ويحتوى على أقدم للعقود لموثق كاتارو (كوتور) بدلماشيا نشره ماير A. Mayer بعنوان سجل الموثقين الكاتاربين Liber Notariorum Catarensium, I (1326-1335), Zagreb, 1951 ونذكر أيضا أن أوبنا Roger Aubenas وزملاءه بجامعة اكس – مارسيليا والمؤسسات الأخرى يعدون فهرسا لوثائق قدامى الموثقين بجنوب فرنسا ويعتزمون نشر جزء منه وأقدمها وثائق منوسك Menosque ، وتبدأ ١٢٥٢ ، وتوجد سجلات أخرى من القرن الثالث عشر فى مونبلييه ورودييز وكابدنياك وجرينوبل وتاراسكون. ويعد فهرس آخر فى برشلونة ، انظر أرشيف برشلونة Los Archivos de Barcelona, I, Ciudad (Madrid, Direccion General de Archivos y Biblotecas, 1952), 8 ؛ وعن قطالونيا فيما عدا وثائق الموثقين نذكر مؤلفين هامين لم أستطع الحصول عليهما وهما روبيو اليوخ Antoni Rubio i Luch ، وثائق الشرق القطلانى Diplomatari de l'Orient Català (1301-1409) المنشور ببرشلونة بمعهد الدراسات القطالونية ١٩٤٧ ؛ وفيخ اسالوم =

لعبت دوراً فى كافة التغيرات التى طرأت على المجتمع الوسيط . هذا كله سبق الكلام فيه وسبق تكراره إلى حد أنه أصبح من الضرورى أن نعيد القول مرة أخرى أن الحروب الصليبيـة كانت خاتمة أكثر منها بداية ، وأن النهضـة الاقتصادية فى الغرب كانت سبباً لها أكثر مما كانت نتيجة لها ، ولا يمكن أن نتصور قيام الحروب الصليبية دون المعاوف الجغرافية والخبرة الحربية والبحرية للإيطاليين ودون ازدياد عدد السكان والنهضة السياسية لفرنسا ، ودون القوة الفائضة لأوروبا بأسرها بل أن هناك محلا للتساؤل : ألا يحتمل أن التقارب الذى بدأ حدوثه بين مختلف الأمم الأوروبية والاسيوية والإفريقية قبل هذه الحروب بمئتى عام كان يصبح أقوى لولا وقوع الصدمة العنيفة لهذه الحروب التى كانت بالنسـبة للشرق أطول الحروب التى عرفها منـذ القرن العاشر وأشدها ضراوة .

إلا أنه لا يجمل بنا التوقف للتأمل فى احتمالات لم تحققها الأحداث ، وثابت أن الحروب الصليبية كانت بمثابة عامل زاد فى سرعة الاحداث باجبار أنحاء أوروبا البعيدة على معرفة أصغر القرى شأناً فى الشرق الأدنى ، وأنها لم تثر الأحقاد فقط ولـكنها بعثت كذلك على الاحترام المتبادل ، وغالباً ما تسبب الجشع والجهل فى تدمير لا فائدة منه ولا يرجى تعويضه قبل أن يتدخل المنطق السليم لـكبار الاشراف والتجار لمنع تبديد الممتلـكات التى أصبحت ملـكاً لهم ، ولـكن ما كان بالنسبة للشرق خسارة كاملة لم يكن إلا خسارة جزئية بالنسبة لأوروبا فقد سهل على الغرب من نواح كثيرة أن يفرض نفسه على شعوب نال منها الفقر والتقتيل . وفضلا عن ذلك فان الحروب لم تشن دون انقطاع فالأعوام المئتان التى مضت منذ رحيل الصليبيين الأول ١٠٩٦ إلى استرداد المصريين لآخر مواقع الصليبيين ١٠٩٢ كان أكثر من نصفها أعوام سلام

= ومونتانير ابوخوسا Juan Vich y Salom & Juan Muntaner y Bujosa وثائق مملكة ميورقة Documenta regni Majorcarum (1229-1349) Palma de Majorque دون تاريخ ؛ ونذكر أيضا فى مجال الوثائق الخاصة مؤلف سابورى ، Armando Sapori سجلات آل البرتو جودتشى ، I Libri degli Alberti del Guidice المنشورة بميلانو Milan, Garzanti 1952 ، والمقتطفات العديدة التى نشرها ميليس Federigo Melis فى مؤلفه تاريخ المحاسبة ، Storia della Ragioneria, Bologne, (Zuffi, 1950) ومراجع أخرى مذكورة فى هذين المؤلفين ، وقد أعلن أيضا عن مؤلف سينشر قريبا لبرتيليه ، Tommasso Bertelè عن سجل لبادوير Giacomo Badoer التاجر البندقى بالقسطنطينية .

ومهادنة ، بل ان العلاقات الاقتصادية لم تنقطع حتى فى وقت الحرب وقد أبدى أحد الكتاب العرب تسامحاً بابحاره على سفينة جنوية للتوجه إلى الحج بفلسطين وحكمة فى ملاحظته فى آخر القرن الثانى عشر : « يزاول رجال الحرب حروبهم ، وتزاول الشعوب تجارتها فى سلام ، والدنيا لمن استطاع الاستيلاء عليها » . وقد أبدى رئيس الأساقفة الكاثوليكى فى صور بدوره أسفه لحماس المكابرين الذين كانوا يجهلون البلاد ويريدون الحرب بأى ثمن وبين بسذاجة أن التجارة مع المصريين « كانت دائماً مصدراً للربح والعزة لنا جميعاً (١) » وإذا صح أن الغرب كان قد نهض فعلا قبل الحروب الصليبية — ونحن بهذا مقتنعون — فانه لا حاجة بنا إلى أن نصف بالتفصيل ما حدث بعد جود فرى دى بويون ويكفى أن نضع حساباً سريعاً لما كان فى الواقع بالنسبة لذلك اليوم المجيد من أيام الثورة التجارية فى العصر الوسيط المتأخر رابعة النهار لا فجره . وفى ذلك الوقت المتأخر كان الشرق قد فقد تدريجاً أهميته كعامل فعال من عوامل التقدم ، وكان لا يزال يمد الغرب ببعض المنتجات الصناعية التى أختص بها وبعض الأفكار ولكنه كان يمده بصفة خاصة بالمواد الخام وبمستهلكين للمنتجات المصنوعة فى أوروبا .

وكان الإيطاليون طليعة الثورة التجارية وذلك بالنظر إلى موقع بلادهم

---

(١) أنظر المقالة الجيدة للامونت John La Monte (مفهوم دول الصليبيين فى التاريخ الوسيط) المنشورة بمجلة Byzantion العدد ١٥ (١٩٤٠ — ١٩٤١) ص ٣٠٠ — ٣١٥ . وبيتر تشارانس ، Peter Charanis أكثر تشاؤما فى مقالته (أهداف الحملات الصليبية الوسيطة ونظرة بيزنطة لها ، Aims of the Medieval Crusades and How they were viewed by Byzantium المنشورة فى مجلة (تاريخ الكنيسة) ، Church History العدد ٢١ (١٩٥٢) ص ٣ وما بعدها وبها المصادر فهو يقول (إن الحروب الصليبية فى غضون الأعوام الثلثمئة والخمسين تقريبا التى ظلت قائمة فيها أضرت بالشرق والغرب على حد سواء وثمة مجال كبير للشك فى أنها قامت بأى خير على الاطلاق) واعتراضه على تفاؤل مؤرخى العصر السابق لا شك أمر محمود ، ولكنه يبدو لى أنه لا يجب المبالغة فيه فالمذابح التى أعقبت استيلاء الصليبيين على أورشليم مثلا يبدو أن المؤرخين قد بالغوا فى وصفها ، أنظر جوتاين ، Shelomo D. Gottein رسائل معاصرة عن استيلاء الصليبيين على بيت المقدس ، Contemporary Letters on the capture of Jerusalem, by the Crusaders المنشورة فى صحيفة الدراسات اليهودية ، Journal of Jewish Studies العدد العاشر (١٩٥٢) ص ١٦٢ — ١٧٧ . وهذا ميدان آخر وهو ميدان المذابح يتخلى فيه العصر الوسيط عن التفوق والغلبة للعصر الحديث !

على أبواب أوروبا والشرق ، وإلى تقدمهم على غيرهم من الشعوب الأوروبية فى كل ما يتعلق باقتصاديات المدن وحاجتهم إلى البحث خارج بلادهم عن موارد أخرى يكملون بها موارد بلادهم الزراعية والمعدنية غير الكافية ، ولم تكن الحروب الصليبية التى لم يتحمسوا للاشتراك فيها دائماً إلا ورقة يلعبون بها ، فالتجار يستطيعون الكسب فى زمن الحرب ولكنهم فى حاجة إلى السلم لاستغلال مكاسبهم ، وختموا أعمالهم البحرية فى الفترة السابقة سواء بالاشتراك مع الصليبيين أو من دونهم ، بالحصول على السيادة التامة على البحر المتوسط ، وبالأكثار فى فلسطين وغيرها من إقامة الجاليات المستقلة ، وكثير منها لم يكن نتيجة الحرب بل كان نتيجة المفاوضات الدبلوماسية البارعة ، وجمعوا الثروات عن طريق النهب وأكثر من ذلك عن طريق التجارة والمصارف ، وعاونهم بصفة خاصة وجود الأفرنج بالأراضى المقدسة لأن الأفرنج كانوا يطلبون إليهم إمدادهم بالسفن والأسلحة والسلع والمال ، ولأن العلاقات المعقودة فى الشرق امتدت إلى أوروبا وأدت إلى قاعدة متواضعة للتوسع فى آسيا وأفريقيا ، وعلى الرغم من المزايا الكبيرة التى حصل عليها الإيطاليون فى الأراضى المقدسة فانهم لم يعقدوا فيها صفقات توازى ماعقدوه فى الاسكندرية التى حجز فيها الايطاليون طيلة العصر الوسيط كله فى أحياء ضيقة عليها رقابة شديدة ، وكانت القسطنطينية مركز التجارة الدولية لاعكا (١) . أما الاشراف الأفرنج فأنهم حاولوا استغلال النباتات الأجنبية بعيد عن قلاعهم واصابوا فى ذلك شيئاً من النجاح ولكن أعمالهم لم تكن تكفى إلا لحصولهم على بعض الثراء ولم تمول تصديراً واسعاً من السلع أو الطرف الفنية (٢) .

---

(١) لقد لا حظت بسرور بالغ أن آرائى التى أوضحتها فى مواضع مختلفة منها كتابى تاريخ الجاليات الجنوبية فى البحر المتوسط) ، Storia delle colonie genovesi nel Mediterraneo (Bologne, Zanichelli, 1938) تتفق إتفاقا جوهريا مع آراء خبير عظيم بتاريخ سوريا وهو كلود كاهين Claude Cahen والتى أوردها فى مقالته (ملاحظات على تاريخ الحملات الصليبية والشرق اللاتينى) ، Notes sur l'histoire des Croisades et de l'Orient Latin, III : Orient Latin et commerce du Levant المنشورة فى مجلة Bulletin de la Faculté des Lettres de كلية آداب جامعة استراسبورج ، Strasbourg العدد ٢٩ ((١٩٥١) ص ٣٢٨ — ٣٤٦ .

(٢) وإذا لم أخطىء فان البحث المتين الذى وضعه جوزوابرووز ، Joshua Prawer عن (النشاط الاستعمارى فى مملكة بيت المقدس اللاتينية) المنشور فى المجلة البلجيكية لفقه اللغة والتاريخ ، Colonization Activities in the Latin Kingdom of Jerusalem – Revue Belge de Philologie et d'Histoire, XXX (1951), 1063-1118 يبين أن =

وكان لا بد من مرور قرن تقريباً وهو القرن الثانى عشر ليتم انعكاس الدور بين الشرق والغرب وتتحول أوروبا من بلاد مدينة للشرق الأدنى إلى بلاد دائنة له ، وقد يكون تاريخ صناعات النسيج أصدق مثل على ذلك : لم يكن فى استطاعة الصناع فى أوروبا حتى ١١٠٠ تقريباً تصدير منتجاتهم إلى الشرق ، وعلى العكس تسبب التجار الإيطاليون بمشترياتهم فى ارتفاع مفاجىء فى إنتاج منسوجات الترف الحريرية السورية والبيزنطية مما ترتب عليه بعض التدهور فى نوع المنسوجات وصنفها (١) ولكن صناعة الصوف فى فلاندر وفرنسا وانجلترة وإيطاليا لم تلبث أن وصلت إلى كامل نضجها ، وغمرت أسواق الشرق تدريجياً بمنتجاتها ، فى حين أن أقمشة الحرير والكتان التى كانت فيما مضى فخر الشرق الأدنى ومصدر ثرائه لم تعد تجد اقبالا كثيراً عليها من المشترين فى أوروبا التى تعلمت نسج أقمشة فى مثل جمالها ، واقترب اليوم الذى فرض فيه الحرير الإيطالى نفسه بدوره فى مصر وآسيا . ومنذ منتصف القرن الثالث عشر إن لم يكن قبل ذلك نجد أن الصادرات الصناعية الأوروبية الجديدة إلى الشرق بالإضافة إلى الصادرات القديمة من المواد الخام ، وإلى أجور النقل البحرى (لأن الغربيين بعد أن فازوا باحتكار الملاحة فى الرحلات الطويلة تقريباً

= مشروعات الأفرنج وأعمالهم فى الزراعة كانت متواضعة حجما وغلة، وأنها سارت على الطرق الأوروبية فى الاستعمار أكثر مما سارت على الطرق الاسلامية ، وهذا هو الانطباع الذى نخرج به أيضا من دراسة التوسع الايطالى ، ففى معظم الأحيان وحتى نهاية القرن الثالث عشر على الأقل اقتصر الأمر على هجرة وقتية من التجار أو على الأكثر قام الاستعمار فى المدن وحدها ، ولم يحاول البنادقة والجنويون إلا فيما بعد ذلك أن يستغلوا المناجم أو الأقاليم الزراعية الواسعة بطرق رأسمالية كانت متبعة فى بلادهم .

وأول مثل هام فى هذا الصدد هو بنديتو زاكاريا — وأرجو أن أبحثه يوماً خيراً مما فعلت فى المؤلف الذى وضعته فى حداثتى « جنوة البحرية فى القرن الثالث عشر : بنديتو زاكاريا » : Genova marinara nel Ducento : Benedetto Zaccaria (Messine, Principato, 1933) وهو مثل لا تقدمه البلاد المقدسة وإنما صدر عن البلاد البيزنطية . أما تنمية الجنويين للقرم والبنادقة لكريد والأفرنج لقبرص فانها لم تبلغ حالة النضج قبل القرن الرابع عشر .

(١) وهذه الملاحظات لم أصل إليها فقط عن طريق قراءتى الخاصة وإنما وصلت إليها كذلك بفضل محادثاتى مع Phyllis Ackerman Pope من مدرسة الدراسات الأسيوية بنيويورك وإنى أعرب لها عن امتنانى ولكنى أقول إن الآراء التى وردت فى هذه المقالة لاتلزم إلا المؤلف وحده .

بدأوا يوطدون مركزهم فى ملاحة الرحلات القصيرة أيضاً) قد فاقت فى قيمتها صادرات الشرق إلى أوروبا(١) .

---

(١) ويوجد تلخيصان جديران بالعناية أولهما المقدمة التى كتبها فرفكه : Hans van Werveke للمؤلف الذى وضعه بورك : G. de Poerck عن المنسوجات الصوفية الوسيطة فى فلاندروارتوا : La draperie médiévale en Flandre et en Artois (Bruges, De Tempel, جامعة جاند ١٩٥١) والتلخيص الثانى هو الفصل الذى كتبته اليانور كاروس ولسون : Eleanor Carus-Wilson لتاريخ كمبردج الاقتصادى ج ٢ ف ٦ (وبه المصادر) . وهذا التلخيص خير ما يهدى إلى السبيل فى وسط المؤلفات العلمية عن صناعة الصوف وقد بلغت حداً كبيراً فى غزارتها ، إلا أنهما للأسف لم يهتما كثيراً بالمدن المباردية التى كانت تنتج كميات ضخمة من المنسوجات الرخيصة وتصدرها . وفى الواقع نحن لا نزال ننتظر فى هذا الموضوع البحث الجامع الذى وعدنا به بورلاندى : Franco Borlandi ، أما مذكرته عن (النيلة فى العصر الوسيط) : Il guado nel medio evo فى (دراسات لتكريم لوزاتو) : Studi in onore di Gino Luzzatto, I (Milan, Giuffrè, 1949) فهى ليست إلا فصلا منعزلا . وحظنا أقل من الأبحاث الخاصة بصناعة الحرير ولا نزال مضطرين للرجوع فى شأنها إلى كتب مدرسية تقادم عليها الزمن أو إلى أبحاث نظرت إليها من زاوية تاريخ الفن ومنها فون فالكه : Otto von Falke (التاريخ الفنى لنسيج الحرير) Kunstgeschichte der Seidenweberei (2 vols., Berlin, Wasmuth, 1913). ونذكر من المؤلفات المبسطة كتاب برينى : Luigi Brenni (نسيج الحرير عبر العصور) La tessitura serica attraverso i secoli (Como, Ostinelli, 1925) وهو أحسنها بكثير وبه المراجع . وأما عن مدينة لوك وهى أهم مركز من ناحية العلاقات مع الشرق فاننا ننتظر بحثا آخر وعدت به صاحبته منذ زمن طويل ولكنها قدمت موجزاً له أنظر فلورنس دى روفر : Florence Edler de Roover فى مقالها (حرير مدينة لوك) : Lucchese Silks المنشور فى مجلة سيبا : Ciba Review العدد ٨٠ (Bâle, juin 1950) وبه المصادر . وعن الحرير البيزنطى أشير معتذراً إلى مقالتى (صناعة الحرير فى الامبراطورية البيزنطية) Silk industry in the Byzantine Empire المنشورة فى مجلة Speculum العدد ٢٠ (١٩٤٥) ص ١ — ٤٢ . وعن الحرير الاسلامى فان المقالة الحديثة لفلورنس داى Florence E. Day (طراز الحرير المروانى) : The Tiraz Silk of Marwan المنشورة فى (أبحاث أثرية شرقية لتكريم ذكرى هرتزفلد) : Archelogica orientalia in memoriam Ernst Herzfeld (باشراف ميلز George E. Miles : Locust Valley, N.Y. 1962) فانها تبحث فى فترة أقدم ولكنها أعطت المراجع الأساسية للموضوع .

أما عن موضوع الأسلحة فان العجز فى أبحاثه أخطر بكثير ، وبجانب المؤلفات القديمة التى لم تعن إلا بالفترة الحديثة نوعا — مثل بوهيم : Wendelin Boheim (كبار صناع الأسلحة من القرن الرابع عشر حتى القرن الثامن عشر) Meister der Waffenschmiedkunst vom XIV bis ins XVIII Jahrhundert (Berlin, Moeser, 1897) فاننا لا نجد =

ومع ذلك فانه يشك كثيراً فى أن فائض الربح فى هذه التجارة كان كافيا لموازنة العجز فى التجـارة العابرة (الترانسيت) إذ كانت أوروبا تستورد من داخل أفريقيا والشرقين الأدنى والأقصى كميات متزايدة من المواد الخام التى كانت قيمتها أكثر كثيراً بالنسبة لوزنها فأمكن نقلها عبر مسافات طويلة مثل التوابل الرفيعة وهو اسم أطلق على أصناف عدة من السلع المستخدمة فى الزينة والعطور والعقاقير والصباغة الكيماوية والطهو . ولم تكن أوروبا تستطيع أن تقدم فى مقابلها سلعاً فى مثل شروطها (كبر القيمة بالنسبة للوزن) ويمكن تصريفها فى أسواق الشرق الأقصى اللهم إلا سلعتين وهما : الأقمشة الخفيفة المصنوعة من الكتان ، والمصنوعات الزجاجية أو الجواهر البندقية المقلدة . وفضلا عن ذلك فان تجار الغرب لم يكن فى استطاعتهم الوصول مباشرة إلى مناطق الإنتاج فكل ما كانوا يشترونه زاد ثمنه زيادة كبيرة بسبب أرباح الوسطاء . ولما كان المسلمون والروم هم آخر حلقات السلسلة فانه لا يستغرب أن يزداد التوتر بين أهل الغرب وأهل الشرق فى خلال القرن الثالث عشر حتى فى خارج نطاق النزاع الدينى ، ولم تستطع أوروبا لأسباب مماثلة أن تشترك فى التجارة التى كانت قائمة فى السنغال بين جامعى ذهب المجارى المائية من الوثنيين فى بامبوك والزنوج المسلمين الذين كانوا يقايضون على تبرهم الثمين بمقادير ضئيلة من الملح أو النحاس فيشتريها منهم أذكياء التجار فى المدن العربية وكان وجود هذه البلاد الغنية بالذهب معروفاً جيداً فى الموانى الإيطالية والفرنسية الجنوبية ولكن أهلها لم يعرفوا السبيل إلى بلوغه(١) وبدا أن خير وسيلة لحل المشكلتين الدينية والاقتصادية معاً هى

= إلا أبحاثاً تفصيلية صغيرة لا حصر لها : أنظر على سبيل المثال المراجع التى أوردها سابورى ص ٢٨ وما بعدها فى مؤلفه الذى سبق ذكره فى هامش ٢ ص ١٥٧ ونكتفى بذكر بحث كاهان Claude Cahen (رسالة فى الأسلحة موضوعة لصلاح الدين) : Un traité d'armurerie composé pour Saladin المنشور فى مجلة الدراسات الشرقية : Bulletin d'Etudes Orientales, XII (1947-48) ص ١ — ٢٥ و ١٥٦ — ١٧١ وهو بحث أشمل من عنوانه . هذا والمجال أضيق من أن نذكر المراجع الخاصة بصناعات أخرى هى مع ذلك جديرة باهتمامنا .

(١) وعن التوابل لا تزال مؤلفات هيدوشاوبه أساسية ، وعن الأبحاث الحديثة التى يعد بعضها بالغ الأهمية أنظر قائمة المراجع التى أوردها ايفانز : Allan Evans فى الطبعة =

فتح إفريقية الشمالية ومصر والامبراطورية البيزنطية وكانت الامبراطورية البيزنطية قد أبقى عليها زمناً طويلا أملا فى أن الضغط الودى عليها قد يعيدها إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية، ثم سحب البابا حمايته فكانت بيزنطة أول من سقط ١٢٠٤(١)

= التى نشرها لمؤلف بيجولوتى المشهور فى أعمال التجارة : Francesco di Balduccio Pegolotti, Pratica della Mercatura (Cambridge, Mass. : Medieval Academy, 1936) وورد ذكر مؤلفات أخرى أحدث منها فى لوبز وريموند Lopez & Raymond فى كتابهما الذى سبق ذكره . ربما تجدر ملاحظته أن البلاد الأوروبية حاولت أن تتحرر من الاستيراد فى كافة المنتجات التى أمكن اقلمتها فى أراضيها حتى لنجد أن جزءاً كبيراً من قائمة التوابل التى ذكرها Pegolotti كان يأتى من أوروبا . وعن ذهب السنغال فان المؤلف الرئيسى هو المؤلف الذى وضعه لارونسيير : Charles de la Roncière (الكشف عن إفريقيـة فى العصر الوسيط : La découverte de l'Afrique au moyen-âge (3 vols., Le Caire, Société Royale de Géographie 1925-27) وهو يبالغ أحياناً . ونجد قائمة حديثة بالمراجع فى مقالة لوبز R.S. Lopez (الرجوع إلى الذهب فى الغرب فى القرن الثالث عشر : il ritorno al ' oro nell' Occidente duecentesco (Naples, Edizioni Scientifiche Italiane, 1953) وقد نشرت هذه المقالة كذلك فى المجلة التاريخية الايطالية Rivista Storica Italiana LXV, 1953.

(١) سبق لى أن أوضحت فى تاريخ كمبردج الاقتصادى ج ٢ ص ٣١٠ — ٣١١ شكى فى الرواية التى صدقها كثير من الأتقياء فى الغرب وهى الرواية التى تنسب إلى البنادقة تحويل الحملة الصليبية الرابعة عن بيت المقدس إلى القسطنطينية دون علم البابا أو الأشراف . وقد تلقيت بسبب ذلك رسائل كثيرة وانتقادات كريمة ولكنها تعبر عن الدهشة ولذلك فانى أعتذر عن تلخيص الأسباب التى تدعونى إلى الاستمرار فى عدم تصديق هذه الرواية وأولها انى أظن أن هنرى جريجوار : Henri Grégoire فى مقالته « انحراف الحملة الصليبية الرابعة » The Diversion of the Fourth Crusade المنشورة فى مجلة Byzantion العدد ١٥ (١٩٤٠ — ١٩٤١) ص ١٥٨ — ١٦٦ قد أثبت بصفة قاطعة أن رؤساء الحملة كانوا يريدون منذ البداية الهجوم على القسطنطينية ، وأنهم انبأوا البابا أنوسنت الثالث بعزمهم واعترض البابا — رسميا — ولكنه لم يخبر بلاط القسطنطينية ، وقبل عن طيب خاطر نصيبه من غنائم الفتح كما قبل فيما بعد غنائم حملة صليبية أخرى كانت أشد انحرافا وهى الحملة الصليبية الألبية . فهل كانت اعتراضاته الأولى مخلصة أو أنه كان يود أن يحتاط حماية لنفسه من احتمال الفشل أو من احتمال الانتقاد الذى يمكن أن يوجهه المسيحيون المتشددون ؟ وأنى لا استطيع إلا أن أذكر مواطنا لأنوسنت الثالث وهو كافور الذى استنكر رسمياً حملة غاريبالدى (وإن يكن أمده سراً بالسلاح) طالما كان غير واثق من نتائجها ، وفضلا عن ذلك فاننا نلاحظ أن الحملة الصليبية على القسطنطينية كان لها فى نظر البابا مبررات أقوى من مبررات الحملات الصليبية التى قامت ضد فردريك الثانى بعد ذلك ببضعة عشرات من السنين . لقد كان البيزنطيون حقا منقسمين على الكنيسة الكاثوليكية ،

ووقعت ثرواتها وأسرارها الصناعية ـ أو مابقى منها ـ غنيمة للفاتحين ووقع جزء كبير من أراضيها لا فى أيدى أشراف الفرنج وإنما فى أيدى الأشراف من تجار البنادقة الذين استزادوا من استغلاله بطريقة أدق . أما نهضة الامبراطورية البيزنطية فى عهد آل باليولوجوس ١٢٦١ فأنها كانت نهضة ناقصة ولم يترتب عليها من النتائج سوى أنها نقلت السيادة الاقتصادية التى يتمتع بها البنادقة إلى الجنويين فقام هؤلاء بتقوية العلاقات مع أقاليم البحر الأسود فيما وراء الامبراطورية ، واستثمروا أحياناً موارد أهملها البيزنطيون فى بلادهم نفسها كحجر الشب فى آسيا الصغرى . وفى مراكش حاول الغرب فى النصف الأول من القرن الثالث عشر أن يجرب مع أمراء الموحدين الضعاف ذلك الخليط نفسه من الدعاوة الدينية والضغط السياسى الذى فشل فى بيزنطة ، ولما قضى انتصار بنى مرين على ما بقى من هذه الآمال التى لا أساس لها استولى ملك قشتالة ١٢٦٠ على سالة العاصمة القديمة للموحدين بمعاونة التجار الغربيين ، ولكنه طرد منها بعد أسبوعين من دخوله ، وجاء دور لويس التاسع فى عام ١٢٧٠ فحاول الاستيلاء على تونس بمعاونة البحارة الجنويين ولعله كان يأمل أن يعتنق الأمير الحفصى المسيحية راضياً ولكن كان نصيب ذلك الفشل مرة أخرى(١) أما عن

= ولا يرجى عودتهم إلى حظيرتها ، وهيأت القسطنطينية للصليبيين قاعدة حربية هامة على أبواب البلاد المقدسة أعوزتهم طويلا . وأراد هنرى الفلاندرى ثانى الأباطرة اللاتين أن يستمر فى تنفيذ خطة حملة كان البابا أنوسنت الثالث يوافق عليها راضياً مختاراً — وهى إنشاء سلسلة متصلة من الممتلكات الكاثوليكية تمتد من القسطنطينية إلى الأرض المقدسة ، ولا يرجع الخطأ إلى البابا إذا كان المشروع قد أخفق بسبب الحياة الناعمة فى بيزنطة ونشاط أباطرة نيقية .

(١) عن الحملة الصليبية البحرية Cruzada dallent mar. التى قام بها الفونس العاشر وحملة تونس اللتين تبدوان لى شبيهتين شبها واضحاً بالحملة الصليبية الرابعة أحيل القارىء معتذراً إلى البحث الموجز الذى نشرته بعنوان (بشأن فاصل ترقيم : العامل الاقتصادى فى السياسة الافريقية للبابوات : A propos d'une virgule : le facteur économique dans la politique africaine des papes الذى نشرته فى المجلة التاريخية : Revue Historique CXCVIII (1947), 178-88 . وإلى المقالة الموضحة لبيريتا : Antonio Ballesteros Beretta (الاستيلاء على سالة فى عصر الفونس العاشر المعروف بالحكيم : La toma de Salé en tiempo de Alfonso X el Sabio المنشورة فى مجلة الأندلس : Al Andalus العدد الثامن (١٩٤٣) وتكملها مقالتى (الفونس الحكيم وأول أمراء الجنويين فى قشتالة : Alfonso el Sabio y el primer almirante genovès de Castilla المنشورة فى صحيفة تاريخ أسبانيا : Quadernos de Historia de Espana العدد ١٤ (١٩٥٠) والمشكلة جديرة ببحث أعمق .

مصر فأن حملتين صليبيتين عليها كان مصيرهما الفشل بعد نجاح مبدئى واستطاعت مصر على العكس طرد الغربيين من الأراضى المقدسة وكان يمكن للتجارة أن تتحمل هذه الخسارة لأن الممتلكات المسيحية فى فلسطين لم تكن إلا رأس جسر ضعيف ولأن التجار قصروا نشاطهم الرئيسى منذ زمن طويل على قبرص وأرمينيا ، ولكن الأمر كان أكثر صعوبة فيما يتعلق بالخضوع لرغبة البابا وتحريمه على المسيحيين القيام بأية علاقة تجارية مع مصر (١) .

وإذا لم يكن عصيان هذا الأمر على ما كنا نتوقع له من الكثرة — وكان القطالونيون أكثرهم عصياناً له والبنادقة أقلهم خروجاً عليه — فانما يرجع ذلك إلى حدث جديد غير خريطة العالم ، فقد وحد المغول ثلثى آسيا وروسيا الجنوبية ، وكان ذلك صدمة هائلة للبلاد المفتوحة ، ولكن السلم المغولى الذى أعقب الحرب فتح للتجار الغربيين الذين لم يعرفوا أهوالها آفاقاً واسعة ، وانتهت الضرورة التى كانت تدفعهم للمرور بالفندق العربى أو المخزن البيزنطى ، ولم تلبث أمبراطورية جنكيزخان المترامية أن قسمت إلى أربعة خانات ، وكانت أقرب خانتين من الغرب وهما فارس وكبشاك — أكثر ترحيباً بالتجار الأوروبيين لاسيما وأنه توفرت لديهما الأسباب التى تدعو إلى الحذر من الطبقة البورجوازية المسلمة التى قاست من الغزو ، وعرف الجنويون والبنادقة مدن طربزون وقافا وتبريز واستراخان معرفتهم للقسطنطينية والاسكندرية فى القرن الثانى عشر وكان الجنويون قبل ١٣٠٠ يبنون سفنهم فى ترسانات فارس ويزاولون الملاحة فى بحر قزوين والخليج الفارسى (العربى) ، ويحتمل أن يكون أحد أبناء جنوة هو مؤلف القاموس اللاتينى الفارسى الكومانى الذى وضعه ١٣٠٣ للتجار والمرسلين ،

---

(١) أحيل القارىء فى كل ما يختص بما سيرد فى هذا القسم إلى المراجع التى وردت فى مقالاتى الآتية ، (الحرير الصينى فى أوروبا فى عصر أسرة يوان) China Silk in Europe in the Yuan Period المنشورة فى صحيفة الجمعية الشرقية الأمريكية : Journal of the American Oriental Society العدد ٧٢ (١٩٥٢) ص ٧٢ — ٧٦ (أضواء جديدة على الايطاليين فى الشرق الأقصى قبل كولمبوس) : Nuove Luci sugli Italiani in Estremo Oriente prima di Colombo المنشورة فى مجلة الدراسات الكولمبوسية Studi Colombani Genova, Civico Istituto Colombiano, 1953) III, 337-98. وأنى آسف لعجزى عن تصحيح مسودات المقالة الأخيرة .

ويبدو أن تاجراً من بيزة هو الذى قدم للمؤرخ الفارسى رشيد الدين التفصيلات العديدة الجافة عن تاريخ أوروبا والتى وضعها المؤرخ الفارسى فى مؤلفه عن التاريخ العالمى جنباً إلى جنب مع تفصيلات أخرى مملة عن تاريخ الصين .

وفى تلك الأثناء توغل الغربيون فى قلب آسيا الوسطى نفسه فوصلوا مثلا إلى مدينة ارجنك أو ارجاندى بالقرب من بحر آرال وهى المدينة التى أطلق اسمها على نوع من الأقمشة ولكنها اشتهرت فى بداية القرن الرابع عشر كسوق جيدة للأقمشة الواردة من الغرب ، وتقدموا حتى بلغوا شواطىء المحيط الهادى. ولم يجد جيوم دى رويسبروك سفير البابا فى عام ١٢٥٤ فى كركورم العاصمة المغولية الا جالية صغيرة من المنفيين الأوروبيين ، ولم يقابل ماركو بولو فى ١٢٧٥ جالية بندقية فى بكين ، ولكن بعد ذلك بخمسين سنة عرف التجار الإيطاليون الطريق إلى الصين ، وحوالى ١٣٢٥ أصبح الميناء الصينى الكبير تسوان شو أو زايتون ملتقى التجار الجنويين والبنادقة الذين بنى لهم الرهبان الفرنسيسكان فندقاً يشبه فنادق بلاد البحر المتوسط ، وكانت هناك جالية أخرى فى بكين . وكذلك قام التجار الغربيون بزيارة الهند والحبشة ، وامتلأت خريطة كنج – شى – تارتين الصينية بحروف غربية بين أسماء الجاليات البندقية فى القرم ، ووصف فرنشسكو بيجولوتى الوكيل الشهير لشركة آل بيروتزى الفلورنسية فى كتابه العملى الذى وضعه للتجار خط السير من القرم إلى بكين وقال عنه « أنه طريق مأمون تماماً نهار وليلا » وهذا من الأسباب التى أدت حوالى ١٣٤٠ إلى هبوط الثمن الحرير الصينى فى جنوة ولوك فأصبح أقل من ثمن حرير تركستان .

صحيح أن معظم هذه الفتوح خسرته التجارة الأوروبية قبل منتصف القرن الرابع عشر ، وكان فقدها أسرع من أن يترك آثاراً باقية إلا فى خيال الشعراء والمغامرين ، ولكنه كان لها أهمية لاتحصى فى أثناء العقود الستة أو السبعة التى عاشتها ، وفى نهاية القرن الثالث عشر كانت الثورة التجارية قد وصلت إلى ذروة المستوى الذى يمكن أن تصل إليه الموارد الاقتصادية والبناء الاجتماعى والمعارف الفنية فى العالم الذى عرفه أهل الغرب حتى ذلك الحين ، وفتحت

أعماق آسيا صمام أمن قلل الضغط إلى الوقت الذى توقفت فيه زيادة السكان والنمو الاقتصادى وقنعت أوروبا بعد أن قل سكانها وأصبحت فقيرة بالآفاق التى كانت كافية لها قبل ماركو بولو .

(٦)

إن أى إدارة تتصف بالأمانة لا يمكن أن تضع حساباً لا تظهر فيه الخسائر بجانب الأرباح ، وهذه العادة الحميدة لا تراعى غالباً عند تقدير تأثير تيار تاريخى ما ، وما اندر الدراسات المخصصة لحركات المقاومة وعدم المبالاة والقصور الذاتى إذا وازناها بطوفان المؤلفات المخصصة لدراسة تأثير حادثة ما أو فكرة ما فى البلاد التى تأثرت بها (١) ولا شك أنه لا يسهل بيان مناطق الظل قبل الكشف عن كافة مراكز الضوء ووصفها . ولنحاول مع ذلك فى هذه المقالة التى نحن أعلم بما فيها من الثغرات أن نعزل بعض القطاعات التى لم يتلق فيها الغرب شيئاً من أفكار الشرق .

ويحتمل أن أكبر خسارة نشأت من أن شبه جزيرة ايبيريا التى كان يمكن أن تكون خير طريق للتأثير ظلت دائماً على هامش التيارات الكبيرة الاقتصادية والثقافية فى أوروبا ، وليس من شأننا أن نبحث هنا عن الأسباب التى جعلت البرانس أصعب اجتيازاً من الالب ، وثابت أن إيطاليا التى لم ينفرد الروم فيها بالسيادة إلا خلال بضع سنوات والتى مر بها العرب عابرين — كانت وسيطاً أحسن بكثير من أسبانيا التى ظل العلم الإسلامى الأخضر مرفوعاً فيها حتى نهاية العصر الوسيط(٢) .

---

(١) لا أستطيع أن امتنع عن ذكر دراسة طيبة (للقصور الذاتى) وإن تكن فى موضوع وعصر بعيدين عن موضوعنا وعصرنا وهى دراسة فيفر) : Lucien Fébvre (السحر حماقة أو ثورة عقلية ؟ : Sorcellerie, sottise ou révolution mentale ? المنشورة فى مجلة : Annales : Economies, Sociétés, Civilisations, III (1948) ; 9-15.

(٢) كذلك يمكن أن نميز بين تأثير كل بلد من بلاد الشرق وتأثير غيره ، ويبدو لى أن اسهام أفريقية كان هاما بصفة خاصة فى الفترة الأولى ، وأن سوريا أسهمت بأقل مما نظن إذا ذكرنا الحروب الصليبية ، وأن الامبراطورية البيزنطية وفارس كان لهما أكبر الأثر وإن كان أثراً غير مباشر ، ولكن من الخطر الحكم على مشكلة لم يمهد السبيل لدراستها بعد .

ويضاف إلى ذلك أن الزراعة يبدو أن تأثرها بالشرق كان لا شك أقل من تأثر التجارة به ، ويرجع هذا على وجه التحقيق إلى ما عرف به الفلاحون من روح المحافظة ، وإلى النتائج الثابتة المترتبة على المناخ ، وأن تنقل الناس فى الحقول لم يبلغ فى أهميته ما بلغه تنقلهم فى الأسواق والمصانع(١) . والنباتات التى حاول المسلمون إقامتها فى أوروبا لم تعط ثماراً طيبة دواماً . وعلى سبيل المثال نجد أن قصب السكر والقطن كان من الواردات المؤقتة ، وأهملت زراعتهما بعد خروج العرب من صقلية وأسبانيا ، ونجحت زراعة بعض النباتات الأخرى ولكنها تغيرت بفعل الوسط الجغرافى والإنسانى ومن أهم أمثلتها النارنج المر الذى زرعه المسلمون بصقلية فتحول بفضل البستانيين فى إيطاليا وشمسها إلى البرتقال الذى يلذ لنا مذاقه ، ولم تنتشر زراعة نباتات غيرها إلا بعد جلبها من الشرق بمئات السنين : فلا شك أن شجرة التوت كانت توجد فى لمبارديا فى القرن العاشر إذ كانت ممتلكات دير سانتا جوليا فى برشيا تبيع الحرير فى سوق بافيا ، ولكن زراعة شجر التوت لصناعة الحرير لم تصبح إنتاجاً لمبارديا شهيراً إلا فى عصر النهضة على الرغم من أن تقدمها فى إيطاليا الجنوبية والوسطى كان أسرع بقليل (٢) .

وحتى فى التجارة والقانون التجارى نجد أن الميادين التى لم يتناولها التأثير الشرقى لم تكن نادرة . وقد سبق أن بينا التأثير المحتمل للعقود البيزنطية والإسلامية على العقود الغربية ، ولكننا نجد أن بعض العقود الشرقية الأخرى لم يكن لها

---

(١) قدر عدد البنادقة الذين كانوا يعيشون فى القسطنطينية قبل الحملة الصليبية الرابعة بعشرة آلاف تقريبا (ولا شك أن عددهم زاد فيما بعد) فى وقت لم يكن عدد السكان فى البندقية يزيد عن مئة ألف نسمة وعدد السكان فى لندن لا يزيد عن عشرين ألف ، ولا شك أن المراكز الجنوية فى بيرا وقافا قد آوت فيما بعد عشرات الألوف من الايطاليين ، وعلى العكس نجد أن الاستعمار الزراعى الأوروبى فى الشرق الأدنى لم يجذب إلا نسبة ضئيلة من الفلاحين فى الغرب .

(٢) تجد المراجع الأساسية فى تاريخ كمبردج الاقتصادى ج ١ ف ٣ (وهو دراسة ممتازة بقلم باران Charles Parain) ولكن لا يزال مجال العمل كبيراً فى هذا الميدان ، وعلى سبيل المثال فاننا نتساءل عما يمكن أن تسفر عنه دراسة مقارنة لكتب الزراعة مثل كتاب ابن العوام (أبو زكريا) وكتاب كرشنزى : Pietro de Crescenzi .

أى تأثير ، ولم تتغير الخصائص الجوهرية للقانون الأوروبى (١) ووجد لفندق المسلمين مثيل فى فندق الألمان بالبندقية ، وأغرب من ذلك أنه وجد له مثيل فى بعض أسواق التجار فى مدن الشمال التى كانت أقل حفاوة ، وترك التجار الأجانب أحراراً فى معيشتهم والقيام بأعمالهم فى معظم المدن الإيطالية والفرنسية (٢) . ولم تتغلب بعض التأثيرات إلا بعد مقاومة طويلة فالأرقام العربية التى تعلمها ليوناردو فيوناتشى فى بوزيه قبل بداية القرن الثالث عشر واستخدمها موثق فى جنوة بعد ذلك بقليل فى حساباته الخاصة لم تحل محل الأرقام الرومانية قبل نهاية القرن الرابع عشر (٣)

واحتفظت أوروبا بالمبادءة حتى فى ميدان العملة على الرغم من أن العملة هى أكبر وسائل المبادلات الدولية . صحيح أن الدراهم الفضية العربية انتشر تداولها بالآلاف فى اسكندنافيا ، وأن البيزنط الذهبى المضروب فى القسطنطينية ظل حتى أواسط القرن الثالث عشر القاعدة العامة للمدفوعات فكان أشبه بدولار

---

(١) اكتفى بذكر العقد المعروف بالاتفاق حسب العرف والعادة بسوريا : Iatenum secundum morem et consuetudinem Syrie الذى ظهر فى وثيقة للجالية الجنوية ولكن لم يسمع عنه فى أوروبا انظر ديمزيمونى : Cornello Desimoni « العقود المبرمة فى ١٢٧١ ، ١٢٧٤ ، ١٢٧٩ فى ميناء جش بأرمينيا الصغرى وفى بيروت أمام موثقين جنويين » : Actes passés en 1271, 1274 et 1279 à l'Aïas (Petite Arménie) et à Beyrouth par devant des notaires génois.

المنشورة فى مجلة وثائق الشرق اللاتينى : Archives de l'Orient Latin, I (1881), 453

(٢) وقد لا يرجع الشبه بين الفنادق العربية وأسواق الشمالى فى أوروبا إلى تقليد مباشر ، وإنما قد يرجع إلى تأثير البندقية وغيرها من المدن الإيطالية ، ولا شك أن حكومات البلاد الشمالية تأثرت فى إقامتها هذه الأسواق بضرورة الحد من كراهية الأجانب فى بيئة متخلفة اقتصادياً أكثر من تأثرها بمعرفة العادات الاسلامية والبيزنطية أو حتى الإيطالية . أنظر على سبيل المثال مقالة فان هوت : Jean van Houtte السماسرة فى العصر الوسيط : Les courtiers au moyen-âge المنشورة فى المجلة التاريخية للقانون الفرنسى والأجنبى : Revue Historique du Droit Français et Etranger, série 4, XV (1936), 105- وتقريرى فى المجلة التاريخية الحديثة : Nuova Rivista Storica, XXII (1938), 108-12.

(٣) أنظر المقدمة فى الطبعة المنشورة لوثائق الموثق الجنوى لافرانكو : Lafranco المذكورة فى هامش ١ ص ١٧٢ والمراجع التى وردت بها .

خاص بالعصر الوسيط . وفى القرن الثالث عشر تعلم التجار الإيطاليون التعامل بالنقود الورقية الصينية والفارسية المقلدة لها فادركوا فى الوقت المناسب مايمكن أن تحدثه من تضخم لا يعرف مداه . وإذا كانت العملة الورقية لم تكن محلا للتقليد فى أوروبا فانه يندر أن نجد عملة معدنية شرقية لم تتخذ نموذجاً فى إحدى دور السك الغربية . ومع ذلك فقد ظل الدنيير الفضى المحلى الأساس النقدى الرئيسى فى معظم الدول الأوروبية إلى أن ضربت جنوة وفلورنسة (دولارها) الخاص الذى عرف باسم الجنوان والفلورين لاعلى وزن البيزنط ولكن على الوزن والرسم الصالحين للحاجات المحلية (١) وفى هذا الميدان كما فى غيره لم تشمل الفوائد الكبيرة التى تنسب إلى الشرق تغيرات عميقة فى الحياة الأوروبية ولكنها كانت حفزاً لأوروبا على العودة إلى سلوك طريقها الخاص .

---

(١) قد يدهش بعض القراء لما ورد من آراء فى المتن وقد حاولت تبريرها فى بحثى (الرجوع إلى الذهب فى الغرب فى القرن الثالث عشر) : Il ritorno all'oro nell'occidente ducentesco الذى سبق ذكره فى الهامش ١ ص ١٧٩ وبه المراجع الأساسية عن الموضوع .